الفصل الثانى

موضوعات شعر الصعاليك

١ ـ الشعر داخل دائرة الصعلكة

أحاديث المغامرات :

من الطبيعى ـ ما دامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها « الغزو والإغارة للسلب والنهب » ـ أن يكون أكبر ما يعنىَ به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم ، لأن هذه المغامرات هى « الحرفة » التى قامت عليها حياتهم ، والأسلوب الذى انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم . وهم يتحدثون عن هذه المغامرات حديث المؤمن بقيمتها فى حياته ، المعجب بها ، الفخور ببطولته فيها ، أو بمقدرته على النجاة من أخطارها وقد ضاقت فى وجهه سبل النجاة .

وهم يصفون كل ما يحدث فى هذه المغامرات ، منذ أن تأخذ جماعة الصعاليك فى وضع خطتها ، إلى أن تنتهى الغارة ، ويعود فتيان الصعاليك بأسلابهم بعد أن نفذوا خطتهم ، وحققوا أهدافهم ، وهم يصفون ، فى أثناء ذلك ، الطريقَ الذى سلكوه ، ويتحدثون عن رفاق الغارة ، ودور كل واحد فيها ، وكيف نفذوا خطتهم ، وكيف كانت آثارها فى أعدائهم ، وكيف انتهت الغارة وعاد فتيان الصعاليك إلى قواعدهم سالمين بعد أن قتلوا وسلبوا ونهبوا .

فهذا الشنفرى يخرج فى عِدَّة من فتيانهم[1] فيهم عامر بن الأخنس وتأبط شرا والمسيَّب وعمرو بن براقة ومرَّة بن خليف يقصدون العوْصَ ، وهم حى من بجيلة ، فلما انتهوا من الغارة ، وأخذوا طريق العودة ، اعترضت لهم خثعم ،

---

(١) الأغانى ١٨ / ٢١٥ ، ٢١٦ ، وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٣٢ .

ودارت بينهم معركة انتهت بانتصار الصعاليك ، فإذا ما انتهت المعركة فرّغ الشنفرى إلى فنه يحدثنا عنها حديثاً رائعاً فيه دقة وتفصيل ، يبدأ منذ أن أعلن امرأته أنه خارج لها ، غيرَ مبال بحياته أو حريص عليها، وفيم المبالاة أو الحرص وهو يعلم أن أجله لابد آت فى يوم من الأيام :

دَعينى وقولى بعدُ ما شئتِ إننى سيغْدَى بنعشى مرةً فأُغيَّبُ

وهو لا يطيل فى هذا الحديث لأنه فى لهفةإلى أن يدرك رفاقه ، والموقف لا يحتمل رَيثاً ولا إبطاء ، فليترك امرأتهبعد هذا القول الفاصل «دعينى وقولى بعدُ ما شئت» ، وبعد هذا الحجة القاطعة «إننى سيغدى بنعشى مرةً فأغيبُ» ، وليسرع إلى رفاقه فى لهفةشديدة ، يمثلها انتقاله السريعُ من هذا الحديث إلى حديثه عن خروجهم فى مغامرتهم . وهو يذكر لنا أنهم كانوا ثمانية ، وأنهم خرجوا جميعاً مسرعين ، لم يعْهدوا إلى أحد بالقيام على شئونهم ، ولم يُوصُوا أحداً بأهلهم ، وهم جميعاً فتيان كأنهم الذئاب ، وجوههم مشرقة لا تبدو عليها مظاهر جزع أو خوف :

خرَجنا فلم نعْهدْ وقلَّتْ وَصَاتنا ثمـــانية ما بعدها متعتَّبُ
سرَاحينُ فتيانٌ كأَن وجوههمْ مصابيحُ أَو لونٌ منَ الماء مُذْهَبُ[1]

ثم هاهم أولاء فى طريقهم إلى هدفهم مسرعين ، لا يعرجون على شىء حتى على الماء ، على شدة حاجتهم إليه ، وعلى علمهم أنالزاد ظن مغيبٌ ، ثم هاهم أولاء بعد ثلاثة أيام على أقدامهم يصلون إلى هدفهم يتقدمهم دليل خفيفٌ فارع شجاع :

نمرُّ برَهْوِالماءِ صَفحاً وقد طوَتْ ثمائلنا ، والزادُ ظن مغيَّبُ
ثلاثاً على الأَقدام حتى سمَا بنا على العَوْص شَعْشاعٌ من القومِ محرَبُ[2]

---

(١) الذى هنا رواية الأغانى ، وفى الديوان « مستتب » مكان « متعتب » . والسراحين : الذئاب .

(٢) الرهو : مستنقع الماء . الثمائل جمع ثميلة وهى سقاء الماء . الشعشاع : الطويل الخفيف . المحرب : الشديد الحرب الشجاع .

ثم يصور المعركة التى دارت قبيل الفجر ، فى ظلام الهزيع الأخير من الليل ، وقد تنبه لهم الحى الذى يهاجمونه ، فعلت صيحاتهم ، واختلطت بصيحات الصعاليك . ودارت المعركة وقام كل من الصعاليك بدوره فيها فى بطولة وشجاعة : أما تأبط شرا فقد بدأ هجومه السريع بسيفه الذى يهتز فى يده لسرعة ضرباته ، وأما المسيَّب فقد أعمل فيهم سيفه فى تصميم لا يلين ، وأما الشنفرى فقد وقف للدفاع هو وجماعة من فتيان الصعاليك ، وثبتوا فى موقفهم ، حتى انجلت المعركة عن انتصار الصعاليك بعد أن قتلوا جماعة من أعدائهم وسلبوهم ، أما سائرهم — على كثرتهم — فقد انتابهم فزع شديد ، حتى خيل إليهم أن كل مرتفع من الأرض يصبُّ عليهم كل الصعاليك الثمانية :

فثاروا إلينا فى السَّواد فهجْهجوا ... وَصَوَّتَ فينا بالصباح المثوِّب
فشنَّ عليهمْ هزَّةَ السيفِ ثابتٌ ... وصَمَّم فيهم بالحسام المسيَّبُ
وَظَلْتُ بفتيان معى أتقيهمُ ... بهن قليلا ساعةً ثم خيَّبوا
وقد خر منهمْ راجلان وفارسٌ ... كمىٌّ صرعناه وخَوْمٌ مسلَّبُ
يشن إليه كلُّ رِيعٍ وقلعة ... ثمانيةً ، والقومُ رَجْلٌ ومقْنبُ[1]

وهنا ، وقد انتهى الشاعر من تصوير هذه الغارة الناجحة ، لم يعدْ أمامه هو وأصحابه إلا أن يسرعوا عائدين إلى قواعدهم سالمين ، ليحدثوا قومهم الصعاليك فى فخر واعتزاز بما قاموا به من بطولة :

فلما رآنا قومُنا قيل أفلحوا ... فقلنا اسألوا عن قائل لا يكذَّب

وهذا السليك يخرج مع رفيقين له يريدون الغارة « فى عشية فيها ضباب ومطر » ، حتى يأتوا بيتاً « قد انفرد من البيوت » ، ويأبى السليك إلا أن يكون بطل هذه الغارة ، فيخلف صاحبيه وراءه ، ويتربص هو بمفرده ، حتى

---

(١) هجهجوا : صاحوا . المثوب : الداعى المكرر الدعاء . الوخوم : الثقيل . الريع : المرتفع من الأرض . الرجل : الجماعة على أرجلهم . المقنب : الجماعة على الخيل — وقد خالفنا الأستاذ الميمنى فى شرحه للبيت الأخير (انظر الطرائف الأدبية / ٣٢) .

إذا خرج رب البيت بإبله ليعشيها تبعه السليك ، حتى إذا ما أخذت الشيخَ سنةٌ من النوم وقد غطى وجهه بثوبه من البرد حانت الفرصة للسليك ، فاستله من ردائه فضربه فأطار رأسه ، وصاح بالإبل فطردها إلى حيث ينتظره صاحباه ، فطرَدَاها معه[١] ، حتى إذا ما اطمأنوا فرَغَ السليك لفنه مسجلا هذه المغامرة فى هذه المقطوعة الرائعة :

وَعاشية راحت بطاناً ذَعرْتها ... بسوْط قتيل وَسطها يَتسيَّفُ[٢]
كأن عليه لونَ برد محبَّر ... إذا ما أتاه صارم يتلهفُ[٣]
فبات له أهلٌ خلاءٌ فناؤُهم ... ومرتْ بهمْ طير فلم يتعيفوا[٤]
وباتوا يظنون الظنون ، وصحبتى ... إذا ما علوْا نَشْزًا أهلوا وأوْجفوا[٥]
وما نلتها حتى تصَعلكتُ حقبةً ... وكدتُ لأسباب المنيـــة أعرفُ[٦]
وحتى رأيتُ الجوعَ بالصيفِ ضرنى ... إذا قمتُ تغشانى ظلالٌ فأسْدِف[٧]

فالشاعر الصعلوك هنا يبدأ مقطوعته من حيث انتهت مهمته الخطرة ، فهو لا يذكر شيئاً عن خروجه للغارة ولا عن تربصه لها ، وإنما يبدأ بذكر طرده الإبل بعد أن قتل صاحبها ، كأنما هو فرح بتلك الغنيمة التى أنقذته من الجوع والإشراف على الهلاك ، فهو لا يرى إلا تلك الإبل التى نهبها ، ثم ينتقل إلى موازنة طريفة بين طرفى الصراع : بين أصحابه الصعاليك وأهل ذلك الشيخ القتيل ، أما هؤلاء فقد خلا فناؤهم من إبلهم ، ولكنهم مطمئنون حتى إنهم لم يتعيفوا الطير التى مرت بهم ، لأن خبر الغارة لما يبلغهم بعد ، وأما أولئك

(١) الأغانى ١٨ / ١٣٤ ، ١٣٥ ، والميدانى : مجمع الأمثال ١ / ٣٩٩ .
(٢) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « وعاشية روح بطان » ، و « بصوت قتيل » . والعاشية : الإبل ترعى ليلا . ويتسيف : يضرب بالسيف .
(٣) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « صارخ » مكان « صارم » ، وفيه أيضا « متلهف » . ويريد بقوله « لون برد محبر » طرائق الدم على القتيل .
(٤) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « لها » مكان « له » .
(٥) كذا فى المصدرين . النشز : المكان المرتفع . أهل : صاح ورفع صوته . أوجفوا : حملوا الإبل على الوجيف وهو ضرب من السير .
(٦) كذا فى المصدرين .
(٧) هذه رواية الأغانى ، وفى مجمع الأمثال « يغشانى » . أسدف أى أظلم بصره من شدة الجوع .

فقد نجوا بغنيمتهم فوق طريق جبلى وعر ، وهم يصيحون صيحة الفرح والفوز ، ويحثون الإبل المنهوبة على الإسراع بينما أهل الشيخ يفكرون أين استقر به وبإبله المقام ؟ وماذا أخره حتى تلك الساعة من الليل ؟ وفى هذه الغمرة من الفرح لا ينسى السليك أن يبرّ غارته ، فهو لم يقدم عليها إلا بعد أن أصبحت المسألة مسألة حياة أو موت ، فقد أشرف على الهلاك لشدة فقره وجوعه ، حتى ليصيبه الدُّوار كلما قام لفرط ضعفه وإعيائه ، وتظلم عيناه لشدة هزاله وإجهاده .

وهذا تأبط شرا يحدثنا فى مقطوعة له[1] عن مغامرة طريفة من مغامراته ، خرج فيها إلى غار فى بلاد هذَيل ، أعدائه الألداء ، ليشتار عسلا ، وعلمت هذيل بخبره ، فوجدوا الفرصة سانحة ليتخلصوا منه ، فحاصروه فى الغار وطلبوا إليه التسليم ، ولكنه راح يراوغهم وقد أخذ « يُسيل العسل على فم الغار ، ثم عَمدَ إلى زق فشده على صدره ، ثم لصق بالعسل ، ولم يزل يزلق حتى جاء سليماً إلى أسفل الجبل ، فنهض وَفاتهم » .

يبدأ الشاعر الصعلوك قصيدته بأبيات فى الحكمة يودعها خلاصة تجربته التى مر بها ، فالشخص الحازم هو الذى يستعين بالحيلة فى مواطن الخطر ، لينجو بها منه ، وهو الذى يعمل للأمر حسابه قبل أن يأخذه على غرة ، وعلى المرء أن يكون مرناً فى تصرفاته إذا ما سدت منافذُ الأمر عليه :

إذا المرءُ لم يحتلْ وقد جدَّ جِده ... أَضاعَ وقاسى أمره وهو مدْبرُ

ولكنْ أخو الحزْم الذى ليس نازلا ... به الخطبُ إلا وهو للقصْد مبصر

فذاكَ قريعُ الدهر ما عاشَ حوَّلٌ ... إذا سُدَّ منه منخرٌ جاشَ منخرُ[2]

---

(١) التبريزى : شرح حماسة أبى تمام ١/٣٨ وما بعدها ، والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٣٥٧ وما بعدها ، والعينى : شرح الشواهد الكبرى (على هامش الخزانة) ٢/١٦٥ – ١٧٠ ، وفى الأغانى ١٨/٢١٥ مع اختلاف فى ترتيب الأبيات عن سائر المصادر الأولى ، ومع انفراده بزيادة بيت على آخر القصيدة ، وقد آثرنا رواية المصادر الأولى لأنها أدق فى التعبير عن نفسية الشاعر .

(٢) قريع الدهر : يريد به المجرب البصير . وقوله : « إذا سد منه منخر » المراد به إذا ضاقت عليه الأمور ، وسدت المسالك .

فإذا ما انتهى الشاعر من هذا « الدرس النظرى » انتقل إلى « التطبيق العملى » ، يبدأ به منذ أن تحرجت أموره حين حاصرته لحيان[١] ، وينقل لنا طرفاً من حواره معهم ، ذلك الحوار الذى أراد أن يخدعهم به حتى يفرغ من إعداد وسيلته للنجاة :

أقولُ للحيان وقد صَفِرَتْ لهم وطابى ،ويوْمىضَيقُالجُحْرمُعْوِر[٢]
هما خطتا إما إسارٌ ومنةٌ وإما دَمٌ ، والقتلُ بالحر أجدَرُ
وأخرى أُصَادى النفس عنها وإنها لمَوْرِدُ حزْمٍ إنْ فعلتُ وَمصْدَرُ

ولا يكاد الشاعر يفرغ من تهيئة وسيلة نجاته حتى يسارع إلى تنفيذها ، فإذا هو يفرش لها صدره فى براعة تساعده عليها ضخامةُ صدره ودقة متنه ، حتى نجا من الموت الذى وقف ينظر إليه خزيان ، ثم إذا هو فى قبيلته وقد عاد إليها بعد أن كاد يهلك :

فرَشتُ لها صَدْرِىفزَلَّ عن الصَّفا به جؤْجؤٌ عبلٌ ومتنٌ مُخصَّرُ[٣]
فخالطَ سهْلَالأرضِ لميكدَحِ الصفا به كدْحةً ، والموتُ خزْيانُ ينظرُ
فأبتُ إلى فهم ولم أكُ آيباً وكمْ مثلها فارقتها وهى تصْفِرُ[٤]

شعر المرَاقب :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم ، تحدثوا أيضاً عن تربصهم بأعدائهم ، وترصدهم لضحاياهم ، وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم ، فوق المرتفعات العالية التى يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم ، والتى كانوا يسمونها « المراقب » . وتكثر فى شعر الصعاليك هذه الأحاديث

---

(١) لحيان : بطن من هذيل .

(٢) الوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . وصفرت : خلت . والمراد بقوله « صفرت لهم وطابى » أن نفسه أشرفت على الهلاك بسببهم . والمعور : الذى انكشفت عورته للعدو فهو مكشوف غير محصن . والمراد بقوله « ويومى ضيق الجحر معور » أنه فى مركز حرج ضيق المنافذ .

(٣) الصفا : الصخر . والجؤجؤ : الصدر . والعبل : الضخم .

(٤) فهم : قبيلته . وقوله « وهى تصفر » المراد به أنها تلغط فى أمره ، وتكثر القول فى شأنه ، أو المراد أنها تتأسف على إفلاته منها .

التى يصح أن نطلق عليها « شعر المراقب » .

والمرْقبة التى يتربص فوقها الشاعر الصعلوك دائماً منيعة أبية على سواه ، وأكثر ما يتحدثون عن تربصهم فوقها والليلُ مقبلٌ يغشى الكون بدياجيه الكثيفة ، ليكون هذا أمعنَ فى التخفى ، وأقرب إلى مواتاة الفرصة ، وأدل على جرأتهم وقوة قلوبهم ، و « الليل أخفى للوَيل » كما يقول العرب فى أمثالهم(١) ، و « الصعاليك نومهم قليل » كما يقول الشاعر الصعلوك عمرو بن براقة(٢) .

ويرسمُ الشنفرى فى قصيدة من شعره لوحةً رائعة لمرْقبة منيعة عالية يعجز دونها الصيادُ الماهر الخفيف الذى يخرج بكلابه المضرَّاة للصيد ، ويصف كيف صَعدَ إليها وقد أقبل الليل بظلامه الحالك الشديد الذى يلف الكون ، وكيف قضَى الليل فوقها متربصاً ، مُحْدباً على ذراعيه مبالغة فى تخفيه كما يتطوى الأفعوان المتكسر ، ولا شيء معه سوى نعلين باليتين ، وثياب أخلاق ، ثم أصحابه الذين لا يفارقونه ، سيفه وقوسه وسهامه :

ومَرْقبةٍ عيطاءَ يقصرُ دونهـا ... أخوالضرْوَةالرَّجلُالخفيفُالمشفَّفُ
نميتُ إلى أعلى ذُرَاها وقد دَنا ... من الليل ملتَفُ الحديقة أَسَدفُ
فبت على حد الذراعين مُحْدباً ... كما يتطوى الأَرقشُ المتقصِّفُ
قليلٌ جَهازى غيرَ نعلين أسحَقتْ ... صدورُهما مخصورةً لا تُخصَّفُ
ومَلحفة دِرْس وجرْد ملاءة ... إذا أَنجمتْ منْجانب لاتكفَّفُ(٣)

(١) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/١٢٠ .

(٢) الأغانى ٢١/١٧٥ .

(٣) الأغانى ٢١/١٤٠ ، ١٤١ . وديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٧ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . ورواية الأبيات فى المصدرين الأخيرين مضطربة يكثر فيها التحريف ، ولذا آثرنا رواية الأغانى – العيطاء : العالية المرتفعة ، أو الأبية الممتنعة . أخو الضروة : الصياد معه كلاب ضراها للصيد . الرجل بسكون الجيم وفتح الراء كالرجل بضمهما . المشفف : النحيل . الأسدف : المظلم . محدبا : من أحدب إذا انحنى . أسحقت : بليت . الملحفة : ما يلبس فوق الثياب من دثار البرد ونحوه. الدرس بكسر الدال : الثوب الخلق ، ومثله الجرد بفتح الجيم . أنجمت : ظهرت وطلعت . كف الثوب : خاط حاشيته .

فإذا ما قتل الشنفرى ، ووقف تأبط شرا يرثيه ، لم ينس تلك المراقب الشماء التى طالما رَبَضَ فوقها فى انتظار فرائسه ، فرائس الغزو وفرائس الثأر :

ومرْقبة شماء أقعيتَ فوقها ليغنمَ غاز أو ليدْركَ ثائرُ[١]

وأما عند تأبط شرا فالمرقبة ذات صورة طريفة ، إنها مرقبة تعلو سائر المراقب ، وهى — إلى جانب هذا — معقدة ذات تجاعيد كأنها عجوز شمطاء عليها ثياب بالية ، ولكنه — مع ذلك — ما إن ينتصف الليل حتى ينهض إليها ليبدأ فى تنفيذ خططه :

ومرقبة يا أم عمرو طِمِرَّة مذَبذَبة فوقَ المراقب عَيْطلِ
نهضتُ إليها من جثوم كأنّها عجوزٌعليها هِدْمِلٌ ذاتُ خيعل[٢]

وأما ذو الكلب فالمرقبة التى يتربص فوقها بعيدةٌ واسعة عالية ملساء ، وهو متربص فوق حرْفها طول يومه يخفى شخصه ، حتى إذا حانت الفرصة تحدر فوقها وهو ما يزال متخفياً كما يتحدر الماء الصافى :

ومرقبة يحارُ الطرْفُ فيها تزِلُّ الطيرَ مشرفة القذَال
أقمتُ بِرَيدها يوماً طويلا ولم أُشرفْ بها مثل الخيال
ولم يَشْخصْ بها شرَفى ولكنْ دنوتُ تحدُّرَ الماء الزلال[٣]

وأما أبو خراش فالصورة التى يرسمها لمرقبته أشملُ وأكثر تفصيلا ، فهى مرقبة فى نتوء مشرف من الجبل كأنه حد الفأس ، يشرف على طريق ضيق كأنه النفق ، يتسرب فيه الناس بعضهم فى إثر بعض ، وقد أقيم فوق هذا النتوء عرْشٌ يستظل المتربص تحته ويختفى فيه ، ولكن هذا العرش قديم متهدم لم يبق منه إلا عودان أحدهما قائم والآخر ملقى على الأرض :

---

(١) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٨ .

(٢) لسان العرب ، مادة (هدمل) ، ومادة (جثم) . ويروى البيت الثانى أيضاً فى أمالى القالى ١ / ٣٨ — الطمرة : المرتفعة . العيطل : الطويلة . الهدمل : الثوب الخلق . الخيعل : ثوب من ثياب النساء كالقميص ، أو هو قميص لا كين له .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٧ — القذال : الرأس ، يريد به رأس المرقبة . الريد : الحرف ينذر من الجبل ، ومعنى البيت الثانى أنه أقام بها منكبا ولم يقم مشرفا .

لستُ لِمُرَّةَ إنْ لم أُوفِ مرقبةً ... يبدو لى الحَرْفُ منها والمقاضيبُ
فى ذات رَيْد كذَلْق الفأس مُشْرِفة ... طريقها سَرَبٌ بالناس دُعبوبُ
لم يبقَ من عرْشها إلا دَعامتها ... جِذْلانِ : منهدمٌ منها ومنصوبُ[1]

ولكن أبا خراش يختلف هنا عن زملائه شعراء المراقب ، فهو لم يكن وحيداً فوق مرقبته ، وإنما كان معه صاحب له ، وهو معنىٌّ بصاحبه أكثر من عنايته بنفسه ، فهو صاحبٌ حذر قوى النفس لم يرْضَ لها أن يكون عبداً راعياً ، وإنما آثر أن يكون صعلوكاً عاملا ، يتربص فوق المراقب فى سواد الليل ، رافضاً تلك الراحة البغيضة التى ينعم بها الضعفاء الذين لا خير فيهم ، ممن يؤْثرون النوم والدفء على العمل والكفاح :

بصاحبٍ لا تُنالُ الدهر غِرَّتُهُ ... إذا افتلى الهدفَ القِنَّ المعازيبُ
بعثتُــه بسواد الليل يرْقبنى ... إذْ آثر النومَ والدفءَ المناجيبُ[2]

ويمضى أبو خراش بعد ذلك مضيفاً إلى صورة صاحبه خطين آخرين ، فهو قائم فوق هذه المرقبة كأنه السهم ، ثم هو سَمْحُ النفس على نحافته وقلة لحمه :

يظل فى رأسهــا كأنه زُلَمٌ ... من القدَاح به ضَرْسٌ وتعقيبُ
سَمْحٌ من القوم عرْيانٌ أشاجعه ... خَفَّ النواشرُ منه والظنابيبُ[3]

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٥٩ ، ١٦٠ – أوفى : أشرف . الحرف من الجبل : أعلاه المحدد ، وقد رجحنا من قبل أنها هنا تحريف صوابه « الحرث » بمعنى النبات ، بدليل « المقاضيب » التى تأتى بعدها ، وهى الأرض تنبت النبات الرطب . ذلق الفأس : حدها . السرب : الشائع الذى يتسرب فيه الناس بعضهم فى إثر بعض . الدعبوب : الموطوء . الجذل : العود .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٦٠ – افتلى الهدف أى فلاه من أهله ، أى عزله وفصله . الهدف : الثقيل الوخم من الرجال . القن : الذى أبوه عبد وأمه أمة . المعازيب : الإبل والشاء التى تعزب عن أهلها فى المرعى . يريد بصاحب ليس براع تبعده إبله وشاؤه عن أهله . المناجيب : الضعفاء الذين لا خير فيهم .

(٣) المصدر السابق / ١٦١ – الزلم بفتح الزاى وضمها : القدح لا ريش عليه . الضرس : تأثير العض . عريان أشاجعه يعنى ليس بكثير اللحم . النواشر : عصب ظهر الكف . الظنابيب : عظام الساق أو حرفها .

وأما صَخر الغي — وإنْ لم يردْ فيما بين أيدينا من شعره حديثٌ عن المراقب — فإن حديثها قد وَرَدَ عنه فى رثاء شاعر هذَلى له هو أبو المثلَّم، حيث يصفه بأنه « ربّاء مرقبة »[١] .

وأما عروة فصفة الزعامة لا تفارقه ، فهو لا يقف رَبيئاً لأصحابه ، وإنما يبعث أحدهم ليرقبَ لهم الطريق فوق المرتفعات ، وهو يرسم فى بعض شعره صورة لهذا الربيء ، وقد وقف فوق مرقبة ثابتاً لايتحرك كأنما غُرِس فوقها ، ولكن عينيه لا تستقران ، فهو يقلبهما دائماً فى الفضاء الذى يحيط بهم ، حيث أناخوا إبلهم ، وأوقدوا مواقدهم يهيئون لأنفسهم طعاماً :

إذا ما هبطنا منهلا فى مَخوفة ... بعثنا رَبيئاً فى المرابئ كالجِذْل
يقلِّب فى الأرض الفضاءِ بطرْفه ... وهن مناخاتٌ ومرْجلنا يغلى[٢]

التوعد والتهديد :

كما تحدث الشعراء الصعاليك عن التربص والترصد تحدثوا عن التوعد والتهديد ، حتى يجمعوا بين ركنى الجريمة القانونيين : التربص وسبق الإصرار !

وأكثر منْ يتوعدهم الشنفرى بنو سلامان ، أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم ، والذين كانوا السبب المباشر لتصعلكه ، والذين عاهد نفسه ليقتلنّ منهم مائة بما اعتبدوه[٣] . وهو يتوعدهم فى شعره توعداً عنيفاً ، فيعلن لهم أنه — ما لم يَحل الموتُ بينه وبينهم — لن يكف عن غزوهم ، فالمسألة عنده مفروغ منها ، وكل ما يرجوه أن يمد الله فى أجله حتى يشفى غليله منهم حين يلاقيهم فى عقر دارهم :

فإلاَّ تزُرْنى حَتْفَنى أو نلاقنى ... أمشِّ بدَهْمٍ أو عِدَافٍ بَنَوُّرَا
أمشِّى بأطراف الحَماط ، وتارةً ... ينفِّضُ رجلى بُسْبطاً فعَصَنْصرَا
أبغِّى بنى صَعب بن مُـرٍّ بدارهم ... وسوف ألاقيهم إن الله أخَّرا

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٣٤ .
(٢) ديوانه /١١١ ، ١١٢ — الجذل هنا جذع الشجرة .
(٣) انظر الأغانى ٢١/١٣٤ .

ويوماً بذات الرَّسِّ أو بطن مِنْجَل هنالك نَبْغى القاصىَ المتغوِّرَا(١)

وهو إذا كان يتأخر عن غزوهم أحياناً فليس هذا دليلا على أنه قد كف عنهم ، وإنما هو يمهلهم إلى حين ، وهو واثق من قدرته على غزوهم ، فهو يعرفهم وهم يعرفونه ، وأحب شيء إليه أن يغير عليهم ، وأن يقطع الطريق على سادتهم ،وهو الخبير بطرق الصحراء ومسالكها ،القدير على الاهتداء فى مجاهلها :

كأَنْ قدْ ،فلاَ يغْرُرْك منى تمكُّثى ، سلكتُ طريقاً بين يَرْبَغَ فالسَّرْد
وإنى زَعيمٌ أَنْ أَلفَّ عجاجتى على ذى كساء من سلامان أو برْدِ
وأَمشى لدى العَصْدَاء أَبغى سرَاتهم وأَسلك خَلاًّ بين أَرْفاغَ والسرْد
همُ عرفونى ناشئاً ذا مخيلة أُمشِّى خلال الدار كالأَسد الوَرْد
كأَنى إذا لم أُمس فى دار خالد بتيماء لاأَهدَى سبيلا ولاأَهْدِى(٢)

أما عمرو ذو الكلب فيعلن أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريراً لا رحمةَ فيه ، الوَيلُ فيه للمغلوب ، وينذرهم بأنه لن يرحمهم إذا ظفرَ بهم ، كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا هم ظفروا به ، فليكن الصراع بينه وبينهم عنيفاً ، وَليغزُهم برفاقه الصعاليك الشجعان الذين يختلف عددهم بين الواحد والجماعة ، وهو — فوق ذلك كله — يتوعدهم بأنه لن يكف عن غزوهم حتى يقتلهم ويرمل نساءهم :

فإنْ أثْقِفْتمُونى فاقتلونى وإنْ أَثْقَفْ فسوف ترَوْنَ بالى
فأَبرَحُ غازيًا أَهدى رَعيلا أَؤُم سوادَ طود ذى نِجَال
ويبرحُ واحدٌ واثنان صَحبى ويوماً فى أَضَاميم الرجال

---

(١) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٥ ، ٣٦ . والأغانى ٢١/١٣٥ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ١٠ ، ١١ . مع اختلاف فى الألفاظ والترتيب — دهو أو رهو ، وعداف ، وبنور ، وبسيط ، وعصنصر : أسماء جبال . الحماط : شجر يشبه شجر التين . بنو صعب بن مر هم إخوة سلامان . ذات الرس وبطن منجل : موضعان .

(٢) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٤ . والأغانى ٢١/١٣٥ . والبكرى : معجم ما استعجم ١/١٣٩ . يربغ : موضع بين عمان والبحرين . السرد وأرفاغ : جبلان لبنى سلامان ، وبهما منازلهم . العصداء : أرض لبنى سلامان . الخل : الطريق ينفذ فى الرمل ، أو النافذ بين رملتين ، أو النافذ فى الرمل المتراكم .

بفتيان عَمارطَ من هذَيل ... همُ ينفون آناسَ الحِلال

وأبرحُ فى طوَال الدهر حتى ... أقيمَ نساءَ بَجْلَةَ بالنعَال(١)

وأما تأبط شرا فقد كان أوسع ميداناً من ذى الكلب ، فإنه لا يقنع بغير غزو خثعم وبجيلة وثمالة وهذيل ، وهو يرد الفضل فى هذا كله إلى قدميه اللتين أودع الله فيهما عذاباً وشرًّا يصبهما عليهم :

أرى قدمىَّ وَقْعهما خفيف ... كتحليل الظَّليم حدَا رِئالهْ

أَرى بهما عذاباً كل يوم ... لخثعمَ أَو بجيلةَ أَو ثماله

وشرًّا كان صُبَّ على هذيل ... إذا علِقتْ حبالهُم حباله(٢)

وهو لا يترك دم صديقه دون أن يثأر له ، وإنما يهدد بالانتقام الشنيع ، يقتل فيه الرجال ، ويسبى النساء ، فأكبر همه كما يقول « دم الثأر أو يلقى كميًّا مسفَّعاً »(٣) ، غاية ما فى الأمر أنه يحترم تقاليد مجتمعه الدينية ، فيؤخر انتقامه حتى تنتهى الأشهر الحرُم :

فعُدُّوا شهورَ الحُرْم ثم تَعرَّفوا ... قتيلَ أناس أو فتاةً تعانَقُ(٤)

وهو فى هذا الاحترام لمقدسات مجتمعه يخالف تلميذه الشنفرى الذى يصرح فى بعض شعره بأنه قتل قتيلا فى أيام حجه وَسطَ الحجيج المصوِّت بمنى :

قتلنا قتيلا مُهْدِياً بملبـد ... جمارَ منى وَسْطَ الحجيج المصَوِّتِ(٥)

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٣ ، ٢٣٤ — أثقفه : ظفر به . البال فى البيت الأول معناه الحال . قوله « فأبرح غازيا » يريد به فلا أبرح . الرعيل : الجماعة المتقدمة . النجال : ما يخرج من الأرض . الأضاميم : الجماعات ، واحدها إضامة . العمارط : الصعاليك . الحلال : جمع حلة ، والمعنى أنهم يمرون بأصحابها فيهربون من خوفهم . بجلة : قبيلة .

(٢) الأغانى ١٨/٢١٨ ، وأيضا /٢١٦ — التحليل : العدو . الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام . حدا : حاذى .

(٣) حماسة أبى تمام ١/٤٦ . والأغانى ١٨/٢١٧ وفيه « مقنعا » مكان « مسفعا » .

(٤) الأغانى ١٨/٢١٤ . الحرم : الإحرام . ويريد بقوله « فتاة تعانق » سبية تقع فى أسره .

(٥) المفضليات /٢٠٥ . والأغانى ٢١/١٤٠ وفيه « محلهما بين الحجيج » . وأيضا /١٣٧=

ومن أطرف ما نصادفه في هذا الباب توعد الصعلوك للصعلوك ، وتأتى طرافته من أنه يمثل صراعاً بين قوتين متكافئتين ، ومن هنا كان حرصُ كل منهما على تجنب الاصطدام بالآخر من أخص ميزات هذا اللون من التوعد ، ولكن هذا الحرص ليس جبناً ، وإنما هو محاولة لتفادي الكارثة ، ولهذا كان حديث الشاعر الصعلوك عن حرصه هذا مقروناً عادةً بحديثه عن قوته ، ومقدرته على التغلب على خصمه إذ أن أي ضعف يبدو منه في هذا الحديث قد يكون سبباً في أن يدفع حياته ثمناً له ، ولهذا كله كان توعد الصعلوك للصعلوك في شعر الصعاليك قليلا جداً ، ولعل أصدق مثال لهذه « الحرب الباردة» بين الشعراء الصعاليك توعُّدُ صخر الغي الهذلي لتأبط شرا ، أو ابن تُرْنَى كما كان يلقبه ، فهو في قصيدة له يصفه أولا بأنه يعاني صراعاً نفسياً ، سببه حقده عليه وعجزه عنه ، ثم ينصحه ثانياً بأن يخفف من حدة هذا الصراع النفسي ، ولكنه يحذره من أن يجعل وسيلته إلى ذلك الاصطدام به ، فإنه لو فعل للقى حتفه لا محالة ، ثم يعود فيخفف قليلا من حدة أساوبه ، فيمزج العنف باللين في حديث فيه لباقة وفيه دهاء ، يجعل وسيلته إليه أن يشير إلى بعض الصفات المحمودة في خصمه ، ويسأله ألا يكون سبباً في الإساءة إليها :

فإن ابن تُرْنَى إذا جئتكمْ أَرَاه يُدَافعُ قولا عنيفا
قدَ افنى أناملَه أَزْمُهُ فأمسَى يعض عليَّ الوظيفا
فلا تقعدنَّ على زَخَّة وتُضمر نِ القلب وَجدًا وَخِيفا
ولا تُقْدِمَنَّ على خطة تكون إذ نْ لك حتفاً ذفيفا
ولا أَبغينَّكَ بعد النهى وبعد الكرامة شرًّا ظَلِيفا
ولا أَرْقعنَّك رَقْعَ الصَّدِيـ ـع لاءَم فيه الصنَّاع الكتيفا[١]

=وفيه « قتلت حراما » و « ببطن منى وسط الحجيج » ، وهي رواية البغدادي في خزانة الأدب ٢ / ١٨— المهدي : الذي يقدم الهدي . والملبد : المحرم الذي يأخذ صمغا فيلبد به شعره لئلا يشعث في مدة الإحرام . والمعنى : قتلنا رجلا محرما برجل محرم . وقوله « جمار منى » أي عند جمار منى . والمصوت : الملبي الذي يرفع صوته بالتلبية في الحج .

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٤٦ ، ٤٧ — الأزم : العض . الوظيف : الذراع . الزخة : =

وصف الأسلحة :

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم ، فهى القوة الثالثة التى يعتمدون عليها فى مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ، تلك القوى الثلاث التى تقوم عليها حياة الصعلوك يجمعها تأبط شرا فى رثائه للشنفرى حيث يقول :

فلا يبعدَنَّ الشنفرَى ، وسلاحه الـ حديدُ ، وشدٌّ خطوُه متوَاترُ[1]

والأسلحة التى يصفها الشعراء الصعاليك هى تلك التى كان يعرفها العرب فى العصر الجاهلى ، سواء منها أسلحة الهجوم : السيف ، والرمح ، والقوس ، والسهام ، أو أسلحة الدفاع : الدرع ، والترس ، والمغفر . ويلح الشعراء الصعاليك على الحديث عن هذه الأسلحة إلحاحاً شديداً ، وليس فى هذا غرابة ، إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون فى حياتهم الفقيرة ، وهى من غير استخدام لأفعال المقاربة كل ما يحرصون عليه فى هذه الحياة الحمراء المتمردة . وفى أبيات لعروة يذكر أنه لن يخلف لورَثته بعد موته سوى درع ومغفر وسيف ورمح وجواد[2] ، فهذا كل ما يحرص عليه فى حياته ، وكل ما سيظل محافظاً عليه إلى آخر رمق منها حتى يرثه ورَثته من بعده .

ويصرّح صخر الغىّ فى بعض شعره بأنه حريص على سلاحه لا يفرط فيه ، لئلا يطمعَ فيه أحد من أولئك الذين يتوعدونه ، ويتربصون به ، من أعدائه الذين طالما وَترَهم ، فهو يعدد سلاحه فى قصيدة طويلة له ويصفه ، ثم يقول عنه :

ذلك بَزِّى فلن أفرِّطـــه أخافُ أنْ ينجزوا الذى وَعدُوا[3]

ويصل اعتداد الأعلم الهذلى بسلاحه إلى درجة أنه يرى فيه وسيلة تنقله من

=الغيظ . الخيف : جمع خيفة . الحتف الذفيف : القاتل الذى يجهز عليه . الظليف : الشديد أو الغليظ . رقعه : أصلحه بالرقاع كرقعه (بالتشديد) . الصديع : النصف من الشىء المشقوق نصفين . لأم : أصلح . الكتيف : الضبات ، يريد لا أرقعنك بالهجاء .

(١) الأغانى ٢١ / ١٣٧ . وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٢٩ — الشد : الجرى .

(٢) انظر ديوانه / ٢٠٧ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ١٣ — والبز : السلاح .

دائرة البشرية إلى دائرة يكون فيها صنواً للموت :

متى ما تلقنى ومعى سلاحى تلاق الموتَ ليس له عديلُ[١]

ويصف الشعراء الصعاليك أسلحتهم المختلفة وصفَ المفتون بها الذى يهتم بكل أجزائها ، ويحرص على أن يسجل فى حديثه عنها كل شىء فيها : لونها ، وشكلها ، وصوتها ، وطريقة صنعها ، وطريقة استخدامها ، وقيمتها فى حياته ، وفعلها فى أعدائه .

فالسيف عند عمرو بن براقة «جلُّ ماله » لا يفارق يمينه ، بل هو طوع أمرها ، ولكن لحمله تقاليد ، فصاحبه يجب أن لا ينام الليل ، إذ أن من تقاليد حمله أن يكون صاحبه من « أبناء الليل » الذين يرعون حق « أبوته » :

وكيف ينامُ الليلَ منْ جل ماله حسامٌ كلون الملح أبيضُ صارمُ
غموضٌ إذا عض الكريهة لم يدَعْ له طمعاً ، طوْعُ اليمين ملازمُ[٢]

وهو عنده أحد أركان ثلاثة يعتمد عليها من يريد أن تجتنبه المظالم فى ذلك المجتمع الذى يدين بشريعة القوة :

متى تجمع القلبَ الذكىَّ وصارمًا وأنفاً حميًّا تجتنبكَ المظالمُ[٣]

وهو عند عمرو ذى الكلب الهذلى وشاحٌ لصدره :

تمنَّانى وأبيضَ مشرفيًّـا وشاحَ الصدر أخلِصَ بالصِّقالِ[٤]

وصخر الغى الهذلى حريصٌ على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة ، فهو سيف ماض من حديد جيد أصيل ، رقيق الشفرتين ، يجرى الفرند فى متنه ، ثم هو سيف منتقى ، فلاَ عنه سيوفَ أريح حتى أخرجه من بينها سيفاً معدومَ النظير ، لا تقوى أشد العظام على ضربته ، وإنما تتكسر تحتها قطعاً :

وصارمٌ أخلِصَتْ خشيبتُهُ أبيضُ مَهْوٌ فى متنه رُبَدُ

---

(١) المصدر السابق / ٦٣ .

(٢) القالى : الأمالى ٢ / ١٢٢ ، والأغانى ٢١ / ١٧٥ ، وفيه « صموت » مكان « غموض » ، و « مكارم » مكان « ملازم » . والسيف الغموض : الذى يغيب فى اللحم .

(٣) المصدران السابقان : الأمالى الصفحة نفسها ، والأغانى / ١٧٦ .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ .

فَلوْتُ عنه سيوفَ أرْيحَ إذ   باءَ بكفِّى ولم أكد أجدُ
فهو حسامٌ تُتِرُّ ضربته   ساق المذكىِّ فعظمها قِصَدُ(١)

أما تأبط شرا فيعرض علينا صورة طريفةً لسيفه ، فهو – إلى جانب أنه حاد ثقيل لا يفارقه حتى أبلى محمله – سيف أصيلٌ إذا كل لا يحتاج إلى صيقل ، وإنما حسبه أن يحده صاحبه على الصخر فإذا هو حاد كما كان :

فطارَ بقَحْف ابنة الجن ذو   سفاسِقَ قد أخلقَ المحملا
إذا كلَّ أمهيتــه بالصفا   فحدَّ ولم أُره صَيقلا(٢)

وأما الشنفرى فيهتم بأثر سيفه فى أعدائه ، وبالحديث عن براعته فى استخدامه ، فهو يقصد به أطراف سواعدهم ، ليعجزهم بذلك عن العمل :

وأبيضُ من ماء الحديد مهنّدٌ   مِجذٌّ لأطراف السواعد مِقطفُ(٣)

وهو حريص على أن يصور رفاقه ونفسه فى غاراتهم وهم يستخدمون سيوفهم فى الهجوم والدفاع حتى ينهزم أعداؤهم :

فشنَّ عليهم هِزَّةَ السيف ثابتٌ   وَصمم فيهم بالحسام المسيَّبُ
وظلتُ بفتيــان معى أتقيهمُ   بهن قليلا ساعةً ثم خيبوا(٤)

ولا يعدلُ وصفَ السيف عند الشعراء الصعاليك إلا وصفهم القوس والسهامَ . وأكثر من اهتم بوصفها منهم الشنفرى والهذليون . ويبدو أن مرد هذه الظاهرة الفنية إلى ظواهر اجتماعية خاصة فى حياتهم ، فقد كان الشنفرى – كما يصوّره الرواة مفتوناً بسهامه ، حريصاً على أن تكون مُعلمةً يعرفها الناس ،

(١) المصدر السابق / ١٣ – خشيبته : طبيعته . مهو : رقيق الشفرتين . ربد : أى لمع تخالف لونه ، يريد الفرند . فلا : بحث . أريح : قرية بالشام . باء بكفى : أى صار بكفى . تتر : تبرى . المذكى : المسن أو البدين . القصد : الكسر ، أو القطع فيها مخ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ – سفاسق السيف : طرائقه . أمهى السيف : أحده .

(٣) ديوانه فى الطرائف الأدبية / ٣٨ . وديوانه المصور لوحة رقم ٥٠ . والأغانى ٢١ / ١٤١ وفيه « فحد لأطراف السواعد معلف » . والتحريف فيه واضح .

(٤) الأغانى ١٨ / ٢١٦ ، وديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية / ٣٢ – الضمير فى « بهن » يعود على السيوف المفهومة من السياق .

فكان يميزها بعلامة خاصة حتى تعرّف . ويحدثنا الرواة أنه كان « يصنع النبل ويجعل أفواقهم من القرُون والعظام » ، فكان أعداؤه إذا رماهم « يعرفون نبله بأفواقها فى قتلاهم »[1] ، وأما الهذليون فقد عرفَ عنهم الرمى من بين ثلاث صفات مميزة سجلها لهم القدماء[2] .

وهم يصفون السهام فى جميع أطوارها ، منذ بريْها ، وتركيب الريش فيها ، حتى استخدامها . فى الرمى ، كما يصفون نصالها وأفواقها . ويتحدث الشنفرى فى بعض شعره عن سهامه وكيف يتخيرها ، وكيف يركب فى قداحها الريش ، وكيف يتابع فيها البرْىَ حتى تصير صالحة للاستعمال ، ثم يتحدث عن قيمة هذه السهام التى أعدها هدية لأعدائه الذين يبغضهم :

وَرَدْتُ بمأثور يمان وَضَالة   تخيرتها مما أريش وأرْصُفُ
أركبها فى كل أحمر غاثر   وأنسجُ للولدان ما هو مُقْرِفُ
وتابعتُ فيه البْرىَ حتى تركته   يرنُّ إذا أنزَفته ويزَفزفُ
بكفى منها للبغيض عُرَاضَةٌ   إذا بعتُ خَلاًّ ما له متعرَّفُ[3]

ويتحدث فى مقطوعة أخرى عن رميه أحد أعدائه بسهم قوىّ لا عوج فيه ، ثم يصف أجزاء هذا السهم ، فهو عود من نبع عليه ريش من ريش العقاب ، وله فوقٌ كأنه عرقوب القطاة :

ومستبسلٍ ضافى القميص ضممته   بأزرقَ لا نِكسٍ ولا متعوِّجِ

---

(١) الأغانى ٢١/١٤٢ — « أفواقهم » كذا فى المصدر ، ومن الواضح أنه خطأ صوابه « أفواقها » . والأفواق جمع فوق وهو موضع الوتر من السهم .

(٢) يقول الأصمعى : « إذا فاتك الهذلى أن يكون شاعراً أو ساعياً أو رامياً فلا خير فيه » . (المصدر السابق /٥٧) .

(٣) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٨ . والأغانى ٢١/١٤١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ . مع اختلاف فى الروايات ، والذى هنا رواية المصدر الأول — المأثور : السيف . الضالة : يريد به هذا السهام . الغثرة : غبرة إلى خضرة . المقرف : الدانى . أنزفته : كذا فى نسختى الديوان ، وأظنها تحريفاً صوابه ما فى الأغانى « أنفذته » . الزفزفة : صوت القدح حين يدار على الظفر . العراضة : الهدية . الخل : الطريق فى الرمل .

عليه نُسارىٌّ على خُوط نبعة وفُوقٍ كعرقوب القطاة مُدحْرَج[١]

وأما عمرو ذو الكلب فيعنى بوصف نصال سهامه لأنها التى يكمنُ فى سنانها الموت ، فهى حيناً رماح طائرة يكسوها ريش منسول :

وَثُجْرًا كالرماح مسيَّرات كسينَ دَوَاخل الريش النُّسَالِ[٢]

وهى حيناً آخر كأنها شوْكُ العضَاه :

وفى قعر الكنانة مرهفاتٌ كأَن ظباتهـا شوْكُ السَّيال[٣]

وهم يتحدثون أحياناً عن عدَدها ، فهذا الشنفرى يصف تأبط شرا أو « أم العيال » كما كان يسميه مداعباً ، ويذكر عدد سهامه التى يحملها فى جعبته :

لها وَفضَةٌ فيها ثلاثون سَيْحَفا إذا آنستْ أولى العدىٍّ اقشعرتِ[٤]

أما حين يذكرون القوس فأشد ما يهتمون به صوتها حين ينبضُون فيها ، أو حين يتهيئون للرمى ، فهو صوت يفتنهم فتنة شديدة تبدو فى ذلك الإلحاح الشديد على تسجيله فى شعرهم ، وليس فى هذا غرابة فإن هذا الصوت إيذان ببدء عملهم الذى وهبوا حياتهم له . وصوت القوس فى سمع صخر الغى عندما ينبض فيها كأنه أصواتُ قوم يبحثون عن شىء فقدوه :

وسَمْحةٌ من قِسِيِّ زَارَةَ صفـ راء هتوفٌ عِدَادُها غرِدُ

---

(١) ديوانه المطبوع / ٣٤ . والأغانى ٢١ / ١٤١ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢ . مع اختلاف فى رواية البيتين — الأزرق يريد به السهم . النكس : السهم ينكسر فوقه فيجعل أعلاه أسفله . النسارى : ريش النسارية وهى العقاب ، ويذكر الميمنى فى تعليقاته على الديوان أنه لم يجدها فى المعاجم ، وقد ظن أنها من ريش النسر . المدحرج : المدور .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ — الثجر : جمع أثجر وهو النصل العريض الوسط . النسال : ما تساقط من الريش .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ — السيال : نبات له شوك أبيض طويل ، أو ما طال من السمر .

(٤) المفضليات / ٢٠٤ . والأغانى ٢١ / ١٤٠ وفيه « سلجما » و « إذا ما رأت » — الوفضة : الجعبة . السيحف : السهم العريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال .

كأَن إرنانهـا إذا رُدمتْ هزْمُ بُغاة في إثر ما فقدوا[1]

ولكنه في سمع عمرو ذي الكلب عجيجٌ ، كأنه حنين ناقة مسنة تسبقها إبل شابة فتية ، فهي عاجزة عن مسايرتها وهي لهذا دائمة الحنين :

وفي الشمال سمحةٌ منَ النشَمْ صفراءُ من أقواس شيبانَ القدُمْ
تَعِجُّ في الكف إذا الرامي اعتزمْ ترَنـمَ الشارف في أخرى النَّعمْ[2]

وهو في سمع الشنفرى رنين وهتاف ، ولكنه رنين حزين كصوت الشجي أثقلته شجونه وأحزانه :

وَصفرَاءُ من نبْع أبيّ ظهِيرة تُرِنُّ كإرنان الشجيِّ وتهتفُ[3]

ولكن هذا الصوت الحزين الخافت ينقلب عندما تأخذ السهام في الانطلاق إلى صوت نشط مدوّ كأنه دويّ نحل عائد إلى غاره ، فهو ملتف حوله مطيف به ، يبحث عن منفذ إلى داخله في نشاط ودوي :

إذا طال فيها النزع تـأبى بعَجْسها وترمى بذَرْوَيها بهن فتقذفُ
كأَن حفيفَ النبل من فوق عجسها عوازبُ نحل أخطأ الغار مُطنِفُ[4]

والشنفرى لا يكتفي بهذا ، بل يأبى إلا أن يكون دقيقاً في وصفه ، فهو يلاحظ أن للقوس عند الرمي صوتين : صوتاً عند بدء الرمي ، وصوتاً بعد الانتهاء منه ، فانطلاق السهم يبدأ بصوت عال صارخ ، ثم ما إنْ ينطلق السهم حتى يهدأ رنين القوس ، ويتحول إلى صوت ضعيف خافت نتيجة لاهتزازات وترها ، فهما صوتان مختلفان ، أما أولهما فهو عنده صياح ، وأما الآخر فأنين كأنين الجريح :

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/١٣. وديوان الهذليين ٢/٦٠ – السمحة : القوس المواتية . زارة : حي من أزد السراة . عدادها : صوتها . غرد : شديد الصوت . ردمت : أنبض فيها . الهزم : الصوت .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٩ ، ٢٤٠ – النشم : شجر . الشارف : الناقة المسنة .

(٣) الأغاني ٢١/١٤١ . وديوانه المطبوع /٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٠ ، وفيهما « وحمراء » بدلا من « وصفراء » – الظهيرة : القوية الظهر .

(٤) الأغاني ٢١/١٤١ . وديوانه المطبوع /٣٨ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥١ ، مع اختلاف في الروايات – العجس ، مثلثة العين ، مقبض القوس . والذروان : طرفاها . والمطنف : الذي يعلو الطنف وهو رأس الجبل .

وقاربتُ من كفِّي ثم فرَجتها بنزْع إذا ما استكرِهَ النزْعُ مخلج
فصاحت بكفي صيحةً راجعتْها أنينَ الأَميمِذي الجراحِالمشجَّج[١]

وكما يهتّم الشعراء الصعاليك بصوت القوس ، يهتمون أيضاً بلونها ، وهي عند الهذليين في ضوء ما وصل إلينا من شعرهم صفراء دائماً :

وَسمحةٌ من قسى زارةَ صفـ راء هتوفٌ عدَادها غرِدُ[٢]
وصفراء البُراية عود نبْع كوَقف العاج في ورْك حُدَال[٣]
وفي الشمال سمحة من النشَمْ صفراء من أقواس شيبانَ القدُم[٤]

ولكنها عند الشنفرى أحياناً صفراء وأحياناً حمراء ،ويبدو أن مرد هذا إلى دقة ملاحظة الشنفرى ، وصدق تعبيره عن تجاربه ، فالقوس تكون صفراء في أول أمرها ، فإذا ما كثر استعمالها وتعرضت للشمس والمطر والتقلبات الجوية صارت حمراء . يقول في تائيته متحدثاً عن أصحابه في بعض غزواته بهم :

وباضعة حمــر القسيِّ بعثتها ومَنْ يغْز يغنمْ مرةً وَيشمَّتِ[٥]

ويقول في قصيدة أخرى :

وصفراءُ من نبع أبي ظهيرةٌ ترِنُّ كإرنان الشجى وتهتفُ[٦]

ومن هنا اختلف الرواة في هذا البيت ، فبعضهم يرويه « وحمراء من

---

(١) الأغاني ٢١/١٤١، ١٤٢ . وديوانه المطبوع /٣٤ . وديوانه المصور ، لوحة رقم ٥٢، مع اختلاف في الروايات — النزع : مد القوس . مخلج : من خلج بمعنى جذب وغمز وانتزع ، وفي نسختي الديوان « محلج » من حلج النداف . الأميم : المشجوج على أم رأسه .

(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ١ .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٢٣٥—الوقف : السوار . الورك : جانب القوس ، ومجرى الوتر منها ، والقوس المصنوعةمن ورك الشجرة أي عجزها . القوس الحدال : التي مال عنقها ، وتطامنت إحدى سيتيها .

(٤) انظر ص٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٢ .

(٥) المفضليات /٢٠٢— الباضعة : القاطعة ، ويريد بها قوما غزاة . حمر القسى : يقول ابن الأنباري في شرحه على المفضليات /٢٠٣ « غزوا مرة بعد مرة فاحمرت قسيهم للشمس والمطر ، والقسي تحمر على القدم » . يشمت : يخيب ولا يغنم .

(٦) انظر ص٢٠٠ من هذا البحث ، الهامش رقم ٣ .

نبع»[١]، ولكن من الطريف أن تأبط شرا فى رثائه له يصف قوسه بأنها صفراء:

يُفرِّج عنه غُمَّةَ الروْع عزْمهُ وصفراءُ مرْنانٌ وأبيضُ باترُ[٢]

أما وصف الصعاليك للرماح فهو قليل، ولعل السبب فى هذا قلة اعتمادهم عليها فى مغاماتهم، وذلك لأنها من الأسلحة التى يستخدمها الفرسان أكثر مما يستخدمها الرجالة، ومن هنا كان أشهر من تحدث عنها من الشعراء الصعاليك عروة بن الورد وهو من الصعاليك الفرسان[٣]، وهو يرسم فى رائيته المشهورة صورة رائعة له ولأصحابه، وهم على خيلهم يطاردون إبلا نهبوها، وقد أشرعوا رماحهم وسيوفهم ليدفعوا عنها أصحابها الذين خرجوا خلفهم ليستردوها:

سيفزِعُ بعد اليأس منْ لايخافنا كواسعُ فى أخرى السَّوام المنفَّر

نطاعنُ عنها أولَ القوم بالقنا وبيض خفاف ذات لون مشهَّر[٤]

وهى صورة تستمد روعتها من صدقها وحيويتها، فهذه الخيل القوية السريعة التى يمتطيها الفرسان الصعاليك مشغولة بمطاردة أخريات الإبل المنهوبة، أما فرسانها أنفسهم فمشغولون بمقاتلة طلائع القوات المهاجمة من أصحاب الإبل. وقد مر بنا أن عروة ذكر رمحه من بين الأسلحة التى هى كل ما سيخلفه لورَثته من بعده، وهو يذكر أنه رمح أسمر، قناته من الخطى المشهور، ثم هو رمح مقوم معتدل:

وأسمرُ خطىٌّ القناة مثقَّفٌ وأجردُ عريانُ السراة طويلُ[٥]

والطريف فى حديث عروة عن رمحه أنه لا يذكره إلا مقترناً بجواده، كما نرى فى هذين المثلين، مما يؤيد تعليلنا لقلة وصف الشعراء الصعاليك للرماح بأنها من أسلحة الفرسان.

---

(١) انظر الموضع السابق، الهامش نفسه.

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع /٢٨. وحماسة الخالديين (مخطوطة)، ورقة رقم ٤١٧.

(٣) الأغانى ٣/٧٣.

(٤) ديوانه /٨٣، ٨٤.

(٥) انظر ص ٥٤ من هذا البحث.

ومع ذلك نجد عند بعض الصعاليك السرويين آثاراً ضئيلةً من أحاديث الرماح . يتحدث تأبط شرا ، فى رثائه لصاحبين له قتلا فى بعض غزوهما ، عن مغامراته بفتيان من الصعاليك يحملون فى أيمانهم نوعين من الأسلحة ، ماحاً سمراً ونصالا ذات شعبتين :

لأطْرُدَ نَهباً أو نرُودَ بفتية بأيمانهم سمر القنا والفتائقُ[1]

ويتحدث الشنفرى عن طعنه قتلةَ أبيه طعنةً سامة تمج من حولها سم ثعبان خطر :

فإن تطعنوا الشيخ الذى لم تُفَوِّقوا منيته ، وغبتُ إذْ لم أشهَّدِ
فطعنةُ خلسٍ منكمُ قد تركتها تمج على أقطارها سُمَّ أسودِ[2]

ويتحدث أبو الطمحان عن ضرب يزيل الرءوس عن الأعناق ، وطعن شديد يحدث صوتاً كأنه تشهاق وَلد الحمار حين يهم بالنهق :

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كتشهاق العفا همَّ بالنَّهقِ[3]

وهى جميعاً — ما عدا بيت تأبط شرا — حديث عن آثار استخدام الرماح فى الطعن ، وليست وصفاً صريحاً لها .

ومن الطريف أننا لا نجد حديثاً عن الرماح فى شعر صعاليك هذيل ، ما عدا بيتاً واحداً لأبى خراش ، وهو مع ذلك ليس فى مقام الحديث عن

---

(١) الأغانى ١٨ / ٢١٤ — النهب : الغنيمة . والفتيق : النصل له شعبتان .

(٢) ديوانه المطبوع / ٣٥ . وشرح ابن الأنبارى على المفضليات / ١٩٨ — لم تفوقوا : يرى الميمنى فى تعليقاته على الديوان أنه تحريف « ولعل صوابه لم تفوتوا من الفوت » ، ويرى Bevan أن صوابه « لم تعوقوا » (انظر تعليقات Lyall على هذا البيت فى شرح المفضليات / ١٩٨) ، وعندى أن الكلمة صحيحة لا تحريف فيها ، وأنها من فوق الفصيل إذا سقاه اللبن فواقا فواقا . والفواق ما بين الحلبتين من الوقت ، والمفوق ما يؤخذ قليلا قليلا من مأكول ومشروب ، ويكون المعنى على هذا « أنكم طعنتموه طعنة قاتلة لم تدع له فرصة للنجاة » . والطعن خاص بالرماح (انظر الثعالبى : فقه اللغة / ٣٠١) .

(٣) لسان العرب : مادة (شهق) . والسيوطى : المزهر ٢ / ٢٣٤ ، وفيه « بضرب كآذان الفراء فضوله » — السكنة : مقر الرأس من العنق . التشهاق : الشهيق . العفا : ولد الحمار .

استخدامه لها ، وإنما فى مقام تشبيه إخوته الذين يرثهم بها[1] .

وكما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحة الهجوم ، يتحدثون عن أسلحة الدفاع : الدرع والترس والمغفر ، ولكنه حديث خافت الأنغام . وهذا طبيعى لأن الصعاليك ليسوا فى حاجة إلى أسلحة للدفاع لأن سلاحهم الدفاعى الأول — أو بتعبير آدق — سلاح أكثرهم سرعة العدو الخارقة للعادة ، وهو سلاح طالما استخدموه فأنجاهم . ولهذا كان طبيعياً أن يتحدث عروة عن درعه ومغفره كما نرى فى أبياته التى أشرنا إليها والتى يتحدث فيها عما سيخلفه لورثته من بعده ، فإن عروة كما نعرف عنه لم يكن من العدائين ، ومع ذلك لم يتحدث عن هذه الأسلحة الدفاعية إلا فى هذا الموضع ، إلا إذا كان شعر عروة الذى بين أيدينا ليس كل شعره ، وكان فى شعره المفقود حديث عن هذه الأسلحة الدفاعية . ولكن الغريب حقاً أن يردَ ذكر هذه الأسلحة الدفاعية فى شعر صعاليك هذيل ، ووجه الغرابة أن الهذليين مشهورون بالعدو ، فهم ليسوا فى حاجة إلى هذه الأسلحة الدفاعية لأن سلاحهم معهم دائماً . ومع ذلك فالمسألة لا تصل إلى درجة المشكلة لأن حديث صعاليك هذيل عن هذه الأسلحة لم يتجاوز حديثهم عن الترس فقط ، وهو مع هذا حديث خافت الأنغام لا يعدو حالتين : إما إشارة سريعة له ، وإما وصفاً لصنعه ، فصخر الغى يشير إلى ترسه ، عند ذكره لمجموعة أسلحته ، أو « بزّه » كما يسميها ، إشارة سريعة لا تتجاوز جزءاً من شطر يصفه فيه بأنه مقبب موثق :

إنى سينهىَ عنى وعيدهمُ بيضٌ رِهابٌ ومُجْنَأٌ أُجُدُ[2]

وقد يكون عمرو ذو الكلب أشد عناية بترسه من صخر الغى ، فهو يفرد له بيتاً فى إحدى قصائده يصفه فيه بخمس صفات : فهو أسمر ، مقببٌ ، مصنوع من جلد ثور ، أصم لا خلل فيه ، تصيبه النصال فترتد عنه وقد تكسرت ظباتها :

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٢٤ (البيت الأول) .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ١٣ — رهاب أى رقاق . مجنأ أى مقبب . أجد أى موثق قوى .

وأسمرَ مُجْنأً من جلد ثور ... أصمَّ مفلَّلا ظُبَة النصال[1]

أما أبو خراش ، ثالث الصعاليك الهذليين الذين وصفوا الترس ، فقد وصف ترسه بأنه موثق ، مصنوع من جلد ثور ، ولكن وقفته طالت عند هذه الصفة الثانية ، إذ مضى يصف هذا الثور ، وكيف نشأ فى واد خصيب مطير ، حتى شب قويًّا يطعن الثيران المتصدية له ، فترتد دامية من طعناته ، ضخماً كأنه خيمة كبيرة :

أواقد ، لا آلُوكَ إلا مهنَّدا ... وجلدَ أبى عجل وثيقَ القبائلِ

غذَاه من السَّرين أو بطن حَلْية ... فروعُ الأَباء فى عميم السوائل

مِشَبٌّ إذا الثيران صدتْ طريقه ... تصدَّعن عنه داميات الشوَاكل

يظل على البَرْز اليفاع كأنه ... طِرَافٌ رَستْ أَوتادُه عند نازل[2]

وهكذا نستطيع أن نقرر ، فى ضوء ما بين أيدينا من شعر الصعاليك ، أنهم بقدر ما كانوا حريصين على ذكر أسلحة الهجوم، مفتونين بوصفها ، كانوا نفورين من ذكر أسلحة الدفاع ، مقلين من وصفها .

الحديث عن الرفاق :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التى يستخدمونها فى مغامراتهم ، يتحدثون عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها ، ودور كل واحد منهم . وما أكثر ما نجد فى شعرهم ألفاظ الرَّجْل، والمَنْسِر ، والسُّرْبَة ، والمِقْنَب ، والفتيان ، والأصحاب ، والصحب ، والقوم ، وأمثال هذه الألفاظ التى تدل على الجماعة ،

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٣٥ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٩ — لا آلوك : أى لا أدع جهدا فى أمرك . أبو عجل هو الثور . السرين : هى رتقة السرين بلدة على الساحل قريبة من مكة بين حلى وجدة . الأباء : القصب . العميم : ما أعتم من النبت فى سوائل المطر ، والسوائل الأماكن التى تسيل بالماء . المشب : الشاب من الثيران أو المسن . الشواكل : كل لحم مضطرب بين الجنب والورك . الطراف : الخيمة .

وما أكثر ما نجد فى شعرهم استخدام ضمير الجماعة، يعبرون به عن رفاقهم لا عن قبائلهم .

وقد مر بنا فى صدر هذا الفصل[١] حديث الشنفرى فى بائيته عن رفاقه الذين خرج معهم ليغزوا العوْصَ ، أولئك الرفاق الثمانية الذين يعتز بهم ، ويملأ الإعجاب بهم نفسه ، حتى ليصفهم بأنهم :

سرَاحينُ فتيانٌ كأَن وجوههم مصابيحُ أَو لونٌ من الماء مذْهبُ

ورأينا كيف وصف خروجهم معه ، وسيرهم إلى العوص ثلاث ليال على الأقدام ، والدور الذى قام به كل واحد منهم فى الغارة ، فمن مهاجم بسيفه لا ينثنى ولا يلين ، ومن مدافع عن رفاقه يحمى ظهورهم ، حتى تم لهم النصر ، وعادوا بغنيمتهم إلى قومهم الصعاليك .

وفى تائيته المفضّلية المشهورة يحدثنا الشنفرى أيضاً عن غزوة له لبنى سلامان أعدائه الألداء ، بل ألد أعدائه ، على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك[٢] ، وهو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه ، صورة سريعة ولكنها قوية ومعبرة ، فهم جماعة من الغزاة المغامرين قد احمرت قسيهم لكثرة غزواتهم ، ويقدم نفسه لنا رئيساً عليهم ، يبعثهم للغزو وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض لهما كل مغامر ، وما احتمال الهزيمة بصارف له عن المغامرة ، فهذه طبيعة المغامرة ، ومن يغزُ يغنمْ مرة ويشمَّت مرة أخرى . ثم بعد أن ينتهى من تقديم رفاقه وتقديم نفسه ، يأخذ فى وصف خروجهم ، فيحدد أولا الموضع الذى اجتمعوا فيه بأمره تحديداً جغرافيًّا دقيقاً ، ثم يذكر الدوافع التى دفعته إلى هذه المغامرة ، ثم يهوّن على نفسه مشقة الطريق ، فستنتهى هذه المشقة باقترابه من هدفه حيث يراوح أعداءه ويغاديهم بغاراته ، ثم يعود بعد هذا إلى رفاقه ليتحدث عنهم حديثاً طويلا ، وهو يخص أحدهم — وهو تأبط شرا الذى كان يقوم على زادهم فى غزواتهم ، ويتولى أمر « التوين » فيها — بحديث مرح

---

(١) انظر : ص ١٨٢ من هذا البحث .

(٢) المفضليات /٢٠٢ — ٢٠٥ وانظر أيضاً ص ٥٠ من هذا البحث .

يداعبه فيه مداعبة طريفة ، فهو « أمهم » التى تقوم على قوتهم ، وتقتر عليهم مخافة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، يعلن أنه غير راض عن هذه السياسة التى تنتهجها « أمهم » لأن « عيالها » جياع من تقتيرها ، فما تخشاه عليهم توقعهم فيه ، ولكنها لا تؤثر نفسها بشىء عليهم ، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة ، وهى « أم » ليست كسائر الأمهات ، إنها غير محجبة ، لا يحجبها ستر ، ولا يضمها بيت ، تحمل جعبة فيها ثلاثون سهماً عريضة النصال ، وتعدو فى سرعة فائقة وفى يمينها سيف صارم بتار :

وأمِّ عيالٍ قد شهدتُ تقوتهم ... إذا أطعمتهم أوتحتْ وأقلَّتِ
تخاف علينا العيل إنْ هى أكثرتْ ... ونحن جياع ، أىَّ آلٍ تألَّتِ
مصعلكة لا يقصرُ الستر دونها ... ولا تُرتجَى للبيت إن لم تُبيَّت
لها وَفضَة فيها ثلاثون سيحفا ... إذا آنستْ أولى العدىِّ اقشعرّت
وتأتى العدىَّ بارزًا نصفُ ساقها ... تجول كعير العانة المتلفت
إذا فزعوا طارت بأبيضَ صارم ... ورامتْ بما فى جَفْرها ثم سَلَّت
حسام كلون الملح صاف حديدُه ... جُرَاز كأقطاع الغدير المنعَّت
تراها كأذناب الحسيل صوادرًا ... وقد نهلتْ من الدماء وعلَّت[1]

ويتحدث عروة كثيراً عن أصحابه ، ولكنه حديث الزعيم أو القائد ، لا حديث الرفيق أو الزميل ، فهو يدعوهم إلى الخروج معه للغزو والغارة :

أقيموا بنى لبنى صدور مطيكمْ ... فإن منايا القوم خيرٌ من الهزْل

---

(١) أوتحت : أقلت . العيل : الفقر . قوله « أى آل تألت » يعنى أى سياسة ساست ، يقال آله أولا إذا ساسه . مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك ، وبفتحها : نحيفة . الوفضة : الجعبة ، والسيحف : السهم العريض النصل . العدى : القوم من الرجالة . اقشعرت : تهيأت للقتال . المتلفت : أى الذى يتلفت إلى الخمر يطردها عن آتنه ، ويروى « المتفلت » أى الذى يتفلت إلى قتال الخمر عن عانته ، والعانة : جماعة الأتن الوحشية . الجفر : الكنانة . الجراز : السيف القاطع . الحسيل : جمع حسيلة وهى أولاد البقر ، شبه السيوف بأذناب الحسيل إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها .

فإنكمُ لن تبلغوا كل همتى ولا أَرْبتى حتى تروا منبت الأَثل[١]

وهو يصرح بأنه سيغزو بهم — لا معهم — ليحقق أهدافه ، أو يرضى نفسه :

فإنى لمستافُ البلاد بسُرْبة فمبلغُ نفسى عذْرَها أو مطوَّفُ[٢]

وهو قائد بارع ، يجمع جنوده، ويخرج بهم فرساناً ورجالة ليغيروا ، حتى إذا ما انتهت الغارة ، وأخذوا طريق العودة، ونزلوا عند بعض المياه لينحروا مما نهبوه، حتى ينالوا حظهم من الطعام والراحة، تحول القائد البارع إلى قائد حذر ، يبعث ربيئاً منهم فوق شرف عال ، ليراقب لهم الطريق حتى لا يفجأهم عدو وهم غافلون :

لعل انطلاقى فى البلاد ورحلتى وشدى حيازيمَ المطية بالرَّحل
سيدفعنى يوماً إلى رَبِّ هَجْمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل
قليل تواليها وطالب وِتْرها إذا صحتُ فيها بالفوارس والرجل
إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفة بعثنا رَبيئاً فى المرابئ كالجِذْل
يقلِّب فى الأَرض الفضاء بطرفه وهن مناخاتٌ ، ومرْجلنا يغلى[٣]

ولعل أطرف ما فى حديث عروة عن أصحابه حديثه عن مضايقاتهم له ، وشكواه من بعض تصرفاتهم التى يضيق صدره بها ، وبخاصة تنكرهم له بعد أن يخصبوا ويستغنوا ويصبحوا كالأغنياء المتمولين ، ولكنه — مع هذا كله — يغفر لهم ، لأنهم عياله وأبناؤه ، وهو أبوهم الذى يتقبل منهم ما يرتكبونه فى حقه ، ثم لأنه يقوم منهم مقام السيد الذى تفرض عليه سيادته أن يتحمل ما يصدر عنهم ، فيعفو عن جاهلهم ، ويغفر لمسيئهم ، ثم لأنه أخيراً يقف

---

(١) ديوانه /١٠٦ . وشرح التبريزى على حماسة أبى تمام ٢/٩٠٨ . مع اختلاف لفظى يسير .

(٢) ديوانه /٩٣ .

(٣) ديوانه /١٠٨ — ١١٢ . الهجمة : الجماعة من الإبل ، أولها أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة ، أو إلى دونها .

منهم موقف الزعيم الخبير بنفسية جماهيره[١] .

ويتحدث تأبط شرا عن رفاقه حديث المعجب بهم ، المعتز برفقتهم ، المقدر لقيمتهم فى حياته المغامرة ، تلك الحياة التى يحياها وحيداً إلا منهم ، فهم عونه على هذه الحياة ، يستعين بهم عليها ، ويستغيث بهم إذا أفزعه أمر . وهم دائماً أبطال شجعان شعثٌ ، لكثرة اشتغالهم بالغزو والكفاح ، والضرب فى أعماق الصحراء ، وجوب آفاقها ، عيونهم نفاذة تتوقد بنار الحماسة والجرأة والإقدام كأنها نار الغضا المتأججة :

مساعرةٌ شُعْثٌ كأَن عيونهم حريقُ غضاً تُلْقى عليه الشقائقُ[٢]

وهو لهذا لا ينسى أبداً فضلهم وقيمتهم فى مغامراته ، وهو يسأل الله أن يتولى عنه جزاءهم ، لأنه عاجز عن جزائهم :

جزَى الله فتياناً على العوْص أمطرَتْ سماؤهمُ تحت العجاجة بالدَّمِ[٣]

فإذا ما سقط أحدهم صريعاً اشتد جزعه عليه ، فإذا مصابه فيه لا يعدله مصاب ، وإذا آماله فى الحياة تنهار :

أبعدَ قتيل العوْص آسى على فتى وصاحبه أو يأملُ الزادَ طارقُ[٤]

وهو يرى أن فقد أحدهم خسارة لا تعوض ، وإضعاف للجماعة التى تشق طريقها فى الحياة بقوة أبنائها ، وكسر لسلاح من أسلحتها يستحق الأسف ، بل يستحق الأسى والحزن والبكاء ، وهو — على قلة دموعه — لا يبخل بها على من تفقده هذه الجماعة من أبنائها الممتازين ، أولئك الذين يمتازون بما يجب أن يمتاز به كل صعلوك عامل : من بصر بكسب المحامد ، وسبق إلى غايات المجد ، وقوة وزعامة بين الرفاق ، وخفة فى الجسم ، وجرأة على اقتحام الأهوال

---

(١) انظر أبياته اللامية التى يقص فيها قصة من هذه المضايقات فى ديوانه من ص١١٣ — إلى ص ١١٨ ، ومن ص ١٢٣ — إلى ص ١٢٥ .

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٤ — مساعرة : جمع مسعر وهو موقد نار الحرب . والشقائق هنا المراد بها أعشاب الجبال .

(٣) الأغانى ١٨ / ٢١٥ .

(٤) المصدر السابق / ٢١٤ .

والسرى فى الليل البهيم المظلم ، وشجاعة فائقة ، ورأى صائب ، وكرم واسع ، وفصل فى الأمور ، وحب للحركة والغزو ، وبغض للدعة والإقامة والاستقرار :

لكنما عوَلى إن كنتُ ذا عوَل ... على بصير بكسب الحمد سباقِ
سباق غاياتِ مجْدٍ فى عشيرته ... مرَجِّع الصوت هدَّا بين أرفاق
عارى الظنابيب ممتد نواشرُه ... مدلاج أدهمَ واهى الماء غسَّاق
حمال ألوية ، شهاد أندية ... قوال محْكمة ، جوَّاب آفاق
فذاك همى وغزْوى أستغيث به ... إذا استغثت بضافى الرأس نَغَّاق[1]

ومن هنا كثر رثاؤه لأصحابه ، فهو وفىّ لهم ولذكراهم ، لا تنسيه إياهم شواغل حياته . وهو يرثى صديقه الأعز ، وتلميذه النابغة ، الشنفرى ، رثاء حارًّا تتجلى فيه تلك اللوعة التى أصابته بعده ، وتلك الحسرة التى استشعرها لفقده ، وتلك الفجيعة التى لا يجد لها دفعاً ، وهو يأسف لأنه لم يكن معه فى ساعة الشدة حين قتل ، إذن لوقف إلى جانبه أخاً ناصراً معيناً :

فلو نبَّأتنى الطيرُ أو كنت شاهدًا ... لآساك فى البلوَى أخٌ لك ناصرُ[2]

وهو لا ينسى فى غمرة هذا الأسى أن يسجل تعاونهما معاً فى ساعات الشدة ، وأوقات الكفاح :

إذا راعَ رَوْعَ الموت رَاعَ ، وإنْ حمى ... حمى معه حرٌّ كريم مصَابرُ[3]

---

(١) المفضليات /١٣ — ١٥ . العول : الإعوال . مرجع الصوت : يريد أنه يصيح بأصحابه آمراً وناهياً . الهد : الصوت الغليظ . الظنابيب : جمع ظنبوب وهو حرف عظم الساق ، ويريد بقوله « عارى الظنابيب » أنه خفيف اللحم ، والعرب تمدح الهزال وتذم السمن . النواشر : عروق ظاهر الذراع ، ويريد بقوله « ممتد نواشره » أنه طويل الذراعين دلالة على تمام خلقه . الأدهم هنا : الليل ، والغساق : الشديد الظلمة . المحكمة : الكلمة الفاصلة القاطعة للأمور . ضافى الرأس : رجل كثير شعر الرأس لكثرة اشتغاله بالغزو فهو لا يتعاهد شعره . النغاق : الذى يصيح فى إثر الطرائد .

(٢) ديوان الشنفرى المطبوع /٢٩ .

(٣) المصدر السابق /٢٩ .

أحاديث الفرار :

كما يتحدث الشعراء الصعاليك عن مغامراتهم وانتصارهم فيها ، وفوزهم على أعدائهم ، يتحدثون أيضاً عن فرارهم وهربهم ، دون أن يجدوا فى هذه الأحاديث غضاضة ، أو أمراً يدعو إلى الخجل والمداراة . وفيم الخجل ما دام الفرار أمراً طبيعياً من قوم عدائين ، أو — بعبارة أخرى — سلاحاً من أسلحتهم يضمن لهم النجاة ليعيدوا الكرة من جديد ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية ؟ فإذا لاحظنا — إلى جانب هذا — أن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التى يفخرون بها دائماً ، وهى سرعة العدو ، أدركنا سر حرصهم على أحاديث الفرار فى شعرهم ، لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة .

وقد اشتهر بعض الصعاليك بفرارهم ، وبخاصة صعاليك الحجاز ومنطقة جبال السراة ، وبالذات صعاليك هذيل التى كانت تنزل فى هذه المنطقة ، وقد رأينا من قبل[1] ما يذكره الأصمعى من كثرة انتشار العدائين فى الحجاز والسراة ، أولئك الذين كانوا «يعدون على أرجلهم ويختلسون» ، وما يذكره من «أن بهذيل وحدها منهم أربعين» ، ويصف الرواة حاجزاً الأزدى بأنه «كان مع غاراته كثير الفرار»[2] . ويفرد البحترى فى حماسته باباً «فيما قيل فى الفرار على الأرجل»[3] ، يروى فيه اثنتى عشرة مقطوعة لثمانية من الشعراء ، منها ثمانى مقطوعات لأربعة من الصعاليك[4] . أى أن ثلثى المقطوعات من شعر الصعاليك ، ونصف الشعراء من الصعاليك ، فإذا لاحظنا أن من هذه المقطوعات الثمانى ثلاثاً لحاجز وحده[5] ، أدركنا أن الرواة كانوا على حق حين وصفوه بكثرة الفرار ، وإذا لاحظنا أيضاً أن من المقطوعات الاثنتى عشرة

---

(١) انظر : ص ٨٠ من هذا البحث (فصل التفسير الجغرافى) .

(٢) الأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) .

(٣) الباب الخامس والعشرون من ص ٦٣ — إلى ص ٦٩ .

(٤) أبو خراش الهذلى (ص ٦٣ ، ٦٤) ، وحاجز الأزدى (ص ٦٤ ، ٦٥) ، والأعلم الهذلى (ص ٦٦) ، وتأبط شرا (ص ٦٨ ، ٦٩) .

(٥) ص ٦٤ ، ٦٥ .

التى يضمها الباب أربعاً لشعراء من هذيل[١] ، أى ثلث الباب كله أو ما يعادل نصف عدد مقطوعات الصعاليك أدركنا دقة ملاحظة الأصمعى عن كثرة العدائين فى هذيل .

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح فى أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذلى . وفى شعر الأعلم الهذلى قصيدة طويلة[٢] يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له من مغامرة لهما فى بعض بلاد كنانة . وهو يبدؤها مباشرة بالحديث عن ذلك المأزق الحرج الذى وجد نفسه فيه حين رأى القوم يطاردونه هو وصاحبه ، وقد اقتربوا منهما حتى لم يعدْ بينهما وبينهم إلا أقل من رمية سهم ، ثم يصور الفزع الذى انتابه فشلّ مقدرته على الرمى ، وإن لم يشل تفكيره عن أن يحث صاحبه على العدو حتى ينجوا معاً :

لما رأيتُ القوم بالـ علياء دون قِدَى المَناصِبْ
وَفريتُ منْ فزع فلا أَرْمى ولا ودَّعتُ صاحبْ
يغرُون صاحبهم بنا جهدًا وأَغرى غيرَ كاذب
أَغرى أَبا وهب ليع جزهم ومَدوا بالحلائبْ[٣]

ثم يمضى فى وصف تلك الجماعات التى تطاردهما ، وسرعة عدو أحد مطارديه ، ثم ينتقل إلى الاعتذار عن فراره بأنه خشى أن يقتل بسيوفهم فيصير طعاماً للذئاب والضباع والثعالب والطير الجارحة :

وخشيتُ وَقْعَ ضريبة قد جرَّبتْ كلَّ التجاربْ
فأَكون صَيدَهمُ بها وأَصير للضُّبع السواغبْ
جزَرًا وللطير المربَّـ ـة والذئاب وللثعالبْ

---

(١) ص ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ وما بعدها ، وديوان الهذليين ٢/٧٧ وما بعدها . وفى حماسة البحترى /٦٦ قطعة منها .

(٣) القدى : القدر . المناصب : الرامى الذى يناصبك الرمى ، يرميك وترميه . فريت : تحيرت ودهشت . الحلائب : الجماعات يجىء بعضها فى إثر بعض .

وتَجــرُّ مُجْرِية لها لحمى إلى أَجْرٍ حوَاشبْ[1]

ثم يصف هذه الضباع وجرَاءها، وكيف تنزع جلدَ المرء نزعاً شديداً ، ولا يكاد ينتهى من رسم هذه الصورة المفزعة لمصبره لو قتل ، حتى يعود لذكر عدوه فى شدة الحر ، ولكنه لا يبالى بشىء من هذا ، فقد اقترب من منطقة الأمان ، ولاحت لعينيه منازل السلامة، وهنا فقط يذكر أهله وفقرهم ، وأولاده الصغار وحاجتهم ، كأنما يؤنب نفسه التى أغرته بالفرار والهرب دون أن يحقق شيئاً من أهدافه :

حتى إذا انتصف النها رُ وقلت يومٌ حَقُّ ذائبْ
رَفَّعتُ عينىَّ الحجا زَ إلى أناس بالمناقب
وذكرتُ أهلىَ بالعرَا ء وحاجة الشُّعْث التَّوالبْ
المُصْرِمين من التلا د اللامحين إلى الأَقاربْ[2]

ولا يجد حاجزٌ غضاضة من أن يتحدث عن فراره إلى صاحبته الجميلة المتأنقة ، وحسبه — وحسبها أيضاً — أنْ نجا من أعدائه بعد أن كادوا يقتلونه :

أَلاَ هل أَتى ذاتَ الخواتم فَرَّتى عشيةَ بين الجُرْف والبحر من بعر
عشية كادت عامرٌ يقتلوننى لدى طرَف السَّلْماء راغيةَ البَكر[3]

وهو ينتهزها فرصة كغيره من الشعراء الصعاليك العدائين ، ليتحدث عن سرعة عدوه التى تفوق سرعة الظبى الهارب من مطاردة طائر جارح له :

فما الظبى أخطت حلقةُ الظفر رِجْلَه وقد كاد يلقى الموت فى حلقة الظفر
كمثلى أوانَ القوم بين مُعَيَّع وآخر كالنشوان مرْتكز يغرى[3]

---

(١) الضريبة : السيف . جزرا : أى قطعا ، يقال : تركته جزرا للسباع . الطير المربة : المقيمة على لحم أبدا . مجرية : أى ضبع ذات جراء . الأجرى : الجراء. الحواشب : المنتفخات البطون .

(٢) يوم حق ذائب : أى شديد الحر . المناقب : أماكن . التوالب : الجحاش الصغار ، يريد بها هنا أولاده .

(٣) حماسة البحترى /٦٥ . والأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) ، والرواية فيه مضطربة لفظيا . عيع : عى عن أمر قصده. ومرتكز أى معتمد على سية قوسه . والجرف وبعر : موضعان . وراغية البكر : مثل فى الشدة والشؤم ضرب فى بكر ناقة صالح. (انظر أساس البلاغة مادة — رغو —) .

ويدافع تأبط شرا فى قصيدة له عن فراره وتركه رفيقاً له بأنه ما كان ليستطيع أن ينتظر حتى يدهمه مطاردوه الذين كانوا وراءه كالنحل ، ولا أن يبطئ فى عدوه حتى تصيبه السهام التى كانوا يرسلونها خلفه فترديه صريعاً ، وهو لهذا يثنى جسده ، ويسرع بعيداً عن الشر كأنه الظليم المذعور :

ولم أنتظر أن يَدْهمُونى كأنهم ... ورائىَ نحلٌ فى الخلية واكنا
ولا أن تُصيبَ النافذاتُ مقاتلى ... ولم أكُ بالشدِّ الذليق مدَاينا
فأرسلتُ مثنيًّا عن الشر عاطفاً ... وقلت تزَحزَحْ لا تكونَنَّ حائنا
وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاء كأننى ... هِجَفٌ رأى قصرًا سِمالاً وداجنا[1]

وبعد أن يمضى فى وصف سرعة الظليم ، على طريقة الهذليين فى الإلحاح على أوصاف المشبه به ، ينتقل إلى الصورة التى رأيناها عند الأعلم ، صورة الفزع من الموت على أيدى الأعداء ، تلك الصورة التى تقترن عادة بإلقاء الجسد لحيوان البادية الضارى ، وبخاصة الضباع ، تلك الفصيلة التى اشتهرت بولعها بجيف الموتى كما يقرر علماء الحيوان[2] ، فيحدثنا عن نجاته من مطارديه ، ولو لم ينجُ منهم لأمسى قتيلا فى صحراء غبراء ، أو بين براثن ضَبع تنبش الأرض بحثاً عن الجيف :

فزُحزحتُ عنهمْ أو تجئنى منيتى ... بغبرَاءَ أو عرْفاءَ تفرى الدفائنا
كأنى أرَاها الموتَ ، لا دَرَّ دَرها ... إذا أمكنتْ أنيابها والبرائنا[3]

ويدافع أبو خراش عن فراره ، ويضفى على دفاعه لوناً من « المذهبية » ،

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ – الشد : العدو . الذليق : الحاد . النجاء : الإسراع ، والمشعوف هنا : من أصيب قلبه بذعر . الهجف : الظليم . والقصر هنا : اختلاط الظلام . والسمال : جمع سملة وهى بقية الماء فى الحوض . والداجن : لعل معناه هنا المطر المطبق ، أو الصياد المتعود للغزو . ويكون الشاعر بهذا يصور فزع الظليم حين أخذ الظلام يختلط ، والمطر يسقط ، أو حين رأى عند اختلاط الظلام ماء عنده صياد متربص .

(٢) الدميرى : حياة الحيوان ٢/٧١ .

(٣) الأغانى ١٨/٢١٣ – العرفاء : الضبع .

فهو يفر لا لأنه جبان ، فهو إلى جانب فراره مقاتل شجاع ، ولكن لأنه يرى أحياناً أن قتاله لا يجديه شيئاً إلا أن يوردَه موارد الهلاك ، وهو مع ذلك لا يكف عن القتال إلا إذا لم يجد لنفسه مجالا فيه :

فإنْ تزْعُمى أنى جبنتُ فإننى أفر وأَرْمى مرة كلَّ ذلك
أقاتلُ حتّى لا أرى لى مُقاتَلا وأنجو إذا ماخفتُ بعضَ المهالكِ[٢]

ولكن الأعلم يعلن فى منتهى الصراحة والبساطة أنه حين تكاثر عليه أعداؤه فر منهم مسرعاً ، ولم يحاول قتالهم :

بذلتُ لهم بذى وَسُطانَ شَدِّى غداتئذٍ ولم أبذُلْ قتالى[٢]

سرعة العدو :

ولا يكاد الشعراء الصعاليك يتحدثون عن شىء فى مثل ذلك الإلحاح الذى نراه فى حديثهم عن مغامراتهم كما يتحدثون عن سرعة عدْوهم ، ويبدو أن مرَد هذا إلى أمرين : أولهما شعورهم بأنها ميزة تفردوا بها من بين إخوانهم فى البشرية ، وثانيهما إيمانهم بأنها من الأسباب الأساسية فى نجاتهم من كثير من المآزق الحرجة . ومن هنا كان حديثهم عنها حديث المعجب بنفسه تارة ، والمعجب بها تارة أخرى : المعجب بنفسه لأنه تفرد بها من بين سائر الناس ، والمعجب بها لأنها كم أنقذته من أخطار أحدقت به .

وأحسب أننا لسنا فى حاجة إلى القول بأن الشعراء الصعاليك الذين تحدثوا عن سرعة عدْوهم هم أولئك الذين تحدثنا عنهم فى تفسيرنا الجغرافى لظاهرة الصعلكة وهم الصعاليك السرَويون — كما يسميهم الأصمعى[٣] — وبخاصة صعاليك هذيل وفهم والأزد ، أما أولئك الذين لم يعرَفوا بالعدْو كعروة بن الورد فمن الطبيعى ألا يتحدثوا عن شىء لم يعرفوا به .

ويتحدث الصعاليك العداءون عن هذه الميزة حديث المعجبين بأنفسهم

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٦٩ ، وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة ٣٩٧ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٦٣ .
(٣) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .

الذين يرون أنهم قادرون على شيء يعجز عنه بعض الناس، على نحو ما نرى فى قول الأعلم :

فلا وأبيك لا ينجو نجائى غداةَ لقيتهم بعض الرجال[1]

ولكن ذا الكلب لا يرضى بهذه « البعضية » ، وإنما يوسع دائرة حكمه حتى تشمل كل ذى قدم :

فجئتُ لا يشتد شدى ذو قدَمْ[2]

بل إن أبا خراش لا يرضى بالبشر طرفاً ثانياً فى هذه المباراة كأنما يرى أن البشر أبطأ من أن يصلحوا لها ، وإنما يعقد المباراة بينه وبين حمار الوحش ، ذلك الحيوان المشهور بسرعة العدو ، ومع ذلك فحمار الوحش لا يستطيع أن يجاريهُ فى عدوه :

أقبلتُ لا يشتد شدىَ واحدٌ عِلْجٌ أقبُّ مسيَّرُ الأقرابِ[3]

وقد رأينا حاجزاً يتحدث إلى صاحبته الجميلة المتأنقة عن فرته دون أن يجد فى هذا الحديث غضاضة ، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه إذ استطاع النجاة من أعدائه عدْوًا على قدميه . فهو فى هذا الحديث كأنما يقدم إلى صاحبته لوناً من ألوان البطولة التى يراها جديرة بإعجابها ، حتى ليتساءل فى أول حديثه فى لهفة ظاهرة « ألا هل أتى ذات الخواتم فرتى ؟ »

وهم يتحدثون عن هذه الميزة أيضاً حديث المعجبين بها ، المقدرين لقيمتها فى حياتهم . يصرّح حاجز بأن الفضل الأكبر فى نجاته من بعض مواقفه الضيقة لا يرجع إلى قتاله ، وإنما يرجع إلى عدْوه ، وهو — لهذا ولشدة إعجابه برجليه اللتين أتاحتا له هذا العدو — لا يتورع عن أن يفديهما بأمه وخالته ، وماذا جنى

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٠ .

(٢) المصدر السابق / ٢٣٩ ، وترى لأبى خراش ، وقد قلنا فى الفصل السابق إن هذا الاختلاف لا يضيرنا فى هذه الدراسة لأنه اختلاف داخلى .

(٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٦٩ ، وترى لتأبط شرا وللأعلم ، والقول فى هذا كالقول فى البيت السابق — والعلج : حمار الوحش السمين القوى . والأقب : الضامر البطن . ومسير الأقراب : أى مخطط الخاصرتين .

من أمه وخالته غير ذلك السواد الذى صبغه بصبغة بغيضة كانت سبباً من أسباب تلك الحياة المتصعلكة التى يحياها ، والتى زجت به فى هذا الموقف الضيق الذى لولا رجلاه لفقد حياته فيه :

فغير قتالى فى المضيق أغاثنى ولكنّ بذْلى الشدَّ غير الأكاذب
فدًا لكما رِجْلىَّ أمى وخالتى بشدكما بين الصفا والأثائب[1]

ويصرح أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته ويَتِمَ ابنه :

ولولا دِراكُ الشد قاظت حليلتى تخيَّرُ من خطَّابها وهى أيِّمُ
فتقعد أو ترْضَى مكانى خليفةً وكاد خراشٌ يومَ ذلك يَيْتَمُ[2]

ويقص علينا تأبط شرا فى قافيته المشهورة كيف أنجاه عدْوُه من عدُوه ، برغم ما أرسلوه خلفه من خيل سريعة :

ليلةَ صاحوا وأغروا بى سراعهمُ بالعيكتين لدى مَعْدَى ابن بَرَّاق
كأنما حثحثوا حصًّا قوادمه أو أم خِشف بذى شثٍّ وطبَّاق
لا شىء أسرعُ منى ، ليس ذا عذَر وذا جناح بجنب الرَّيْد خفاق
حتى نجوتُ ولما ينزعوا سَلَبى بواله من قبيض الشد غَيْداق[3]

وكما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدْوهم ، يتحدثون عن شدة عدْو رفاقهم ، ويصف تأبط شرا أحد أصحابه الصعاليك بأنه سريع العدْو يسبق الريح :

(١) حماسة البحترى / ٦٤ . والأغانى ١٢/٥٢ (بولاق) .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٤٨ . والأغانى ٢١/٥٦ ، ٥٧ — قاظت : من القيظ ، أى أدركها القيظ ، [illegible] .

(٣) المفضليات / ٧ — ١١ . حصاقوادمه يريد به الظليم ، والأحص : الذى تناثر ريشه وتكسر ، والقوادم من ريش الجناح : ماولى الرأس . وأم خشف يريد بها الظبية . والشث والطباق : من نبت السراة ، وإنما خصهما لأنهما يضمران ما يرعاهما من الحيوان ، ويشدان لحمه . وذا عذر يعنى به فرسا ، والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . الريد : أعلى الجبل ، وإنما خص جارح الجبل لأنه أسرع طيرانا من جارح السهل . الواله : الذاهب العقل . والقبيض : السريع . والغيداق : الكثير الواسع .

ويسبق وَفْد الريح منْ حيثُ ينتحى بمنخرق من شده المتدارك[١]

ويشبه الأعلم انقضاض جماعة من الصعاليك العدائين من كل ناحية على فريسة عرَضَتْ لهم فى أثناء تربصهم بالصحراء بتفجر الماء من حوض قديم منهدم يحاول صاحبه أن يصلحه ولكن الماء يغلبه فيتفجر من شتى نواحيه:

تخافُ لِزَامَ عاديةٍ ثَعول كما يتفجَّر الحوضُ اللَّقِيفُ[٢]

ويرسم أبو خراش صورة رائعة لجماعة من العدائين يحرص كل منهم على ألا يتخلف عن رفاقه حتى لا يفتضح بينهم ، وهم خارجون للغزو فى ليلة ممطرة ، وقد ابتلت أقدامهم ، والشجر يتكسر من وقعها ، فيلتف تحتها أكواماً كأنها أوساط الإبل السود :

وليلة دَجن من جمادَى سريتها إذا ما استهلتْ وهى ساجيةٌ تهمى
وَشوْطٍ فِضَاحٍ قد شهدتُ مُشايحاً لأُدْرِكَ ذَحلاً أو أشِيفَ على غُنْم
إذا ابتلت الأقدامُ والتف تحتها غثاء كأجْوَاز المقرَّنة الدُّهم[٣]

وكما يتحدثون عن شدة عدو رفاقهم ، يتحدثون عن شدة عدو أعدائهم أيضاً ، ليثبتوا لأنفسهم تلك الميزة عن طريق غير مباشر. ويرسم الأعلم فى بائيته التى يتحدث فيها عن فراره هو وصاحب له من بعض أعدائهما صورةً رائعة لمطاردتهم لهما ، يصف فيها خروجهم خلفهما ، وكيف يغرون أسرعهم ليدركهما ، بينما يغرى هو صاحبه ليفوتهم ، ثم يصف تلك الجماعات التى تطاردهم ، والتى يجىء بعضها فى إثر بعض ، كما تدفع الرياح السحب فتجلجل بالرعود ، ثم يصف سرعة عدو أحد مطارديه الذى ينطلق خلفه كأنه حمار وحش ضامر يسرع ليرد الماء :

---

(١) حماسة أبى تمام ١/٤٨ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٦٨ – اللزام : العذاب . الثعول : التى لها زيادات بمنزلة الضرع . اللقيف : الذى أصلحه صاحبه فطينه وسواه من نواحيه .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٣٠ – شوط فضاح : أى إن سبق فيه رجل افتضح. المشايح : الجاد فى كلام هذيل . أشيف : أشرف .

يُغْرون صاحبهم بنـــا جهدًا وأُغْرِى غيرَ كاذبْ
أُغرى أبا وهب ليع جزهم ومدُّوا بالحلائبْ
مدَّ المجلجل ذى العمَا ء إذا يَرَاحُ من الجنائبْ
يُغْرَى جـــذيمة والردا ء كأنه بأقبَّ قارب[1]

ويرسم أبو خراش فى ميميته التى يتحدث فيها عن فراره من خزاعة صورة دقيقة لمطارديه ، وقد اقترب منه أحدهم حتى صار كأنه توأم له ، والسهام تنهال حوله ولكنها تخطئه ، وكيف زاد من سرعته حين رأى وراء ظهره أحد مطارديه مسرعاً وقد بسط ذراعيه ، ومد ساقيه الطويلتين ، وهو حريص على أن يدركه لأن له ثأراً عنده ، وأبو خراش حريص على أن ينجو منه لأنه شخص فاتك جرىء أثيم :

بأسرعَ منى[2] إذ عرفتُ عَدِيَّهمُ كأنى لأوْلاهم من القرْب توْأمُ
وأجودَ منى يوم وافيتُ ساعيا وأخطأنى خلْفَ الثنية أسهُمُ
أُوَائلُ بالشد الذليق وحشىَ لدى المتن مشبوحُ الذراعين خَلْجَمُ
تذكَّر ذَحلاً عندنا وهو فاتكٌ من القوم يعرُوه اجتراءٌ ومأثَمُ[3]

ومن أطرف الأشياء أن يحدثنا الأعلم عن كراهيته لمطارده ، لا لشىء إلا لأنه عداء سريع لا يألو جهداً فى مطاردته :

كرهتُ جذيمةَ العبدى لما رأيتُ المرءَ يجْهدُ غيرَ آلى[4]

وأكثر ما يتحدث الصعاليك العداءون عن شدة عدوهم مقرونة بموازنة بينهم وبين الطير أو بعض حيوان الصحراء المشهور بسرعة العدو .

ويتردد ذكر حمار الوحش عند صعاليك هذيل ، ولا نعثر به عند غيرهم

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٥٥ ، ٥٦ . وحماسة البحترى /٦٦ – العماء : أرفع السحاب فى السماء . يراح : تصيبه الريح . القارب : طالب الماء ليلا . أبو وهب صاحبه ، وجذيمة عدوه .

(٢) متعلقة بوصفه ظبيا يطارده الصيادون يشبه به نفسه فى شدة عدوه .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٤٧ . وحماسة البحترى /٦٤ . والأغانى ٢١/٥٦ – واءل : طلب النجاة . مشبوح الذراعين : عريضهما . الخلجم : الطويل .

(٤) شرح أشعار الهذليين ١/٦٠ .

من الشعراء الصعاليك فيما بين أيدينا من شعرهم ، فيما عدا مقطوعة تروى لأبى خراش أو للأعلم أو لتأبط شرا ، وهى تلك البائية التى أشرنا إليها[١] ، حتى ليصح أن نقول إن ذكرَ حمار الوحش فى صدد الحديث عن العدو خاصة هذلية .

يصف صخر الغى صاحباً له بشدة العدو فيشبهه بحمار وحش ضامر تعضه الحمر فيفر منها هارباً :

معى صاحبٌ داجنٌ بالغزا ة لم يكُ فى القوم وَغْلاً ضَعيفا
ترى عدْوَه صُبحَ إقوائه إذا رَفعَ المَأبِضَان الحَشيفا
كعدْو أَقبَّ رَبَاع ترى بفائله ونَسَـاهُ نُسوفا[٢]

أما الأعلم فالصورة التى يرسمها لحمار الوحش أكثر خطوطاً وألواناً ، فهو عنده ضامر البطن ولكن فى غير هزال كأنه عرْقُ السدر فى حمرته ، وهو سريع يسبق الإبل والخيل النجيبة ، خرج ليلا فى طلب الماء ، فلاحت له أتان سمينة مكتنزة اللحم ، فهو حريص على إدراكها :

يغْرَى جـذِمة والردا ء كأنه بأَقبَّ قاربْ
خاظ كعرْق السدْر يسـ بق غارة الخوص النجائب
عَنَّتْ له سفعاءُ لكَّ تْ بالبَضِيع لها الخَبَائب[٣]

وأما الظليم ، وهو من أسرع حيوان الصحراء عدوا[٤] ، فقد ورد ذكره عند تأبط شرا والأعلم ، كما ورد ذكر النعامة عند أبى خراش . أما تأبط شرا

---

(١) انظر : ص ٢١٦ الهامش ٣ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/٤٨ — داجن : معاود مرة بعد مرة ، أو متعود للغزو . الوغل : النذل . الإقواء هنا : النزول فى القفر من الأرض . المأبضان : باطن الركبة وباطن المرفق . الحشيف : الثوب الخلق . الرباع : الذى ألقى رباعيته وهى السن التى بين الثنية والناب . الفائل والنسا : عرقان . النسوف : آثار العض .

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/٥٦ — خاظ أى مكتنز ممتلىء لحما . سفعاء : سوداء الوجه فى حمرة . لكت : قذفت باللحم . البضيع : اللحم . الخبائب : طرائق اللحم . لها هنا بمعنى منها .

(٤) فى أمثال العرب « أعدى من الظليم » (الميدانى : مجمع الأمثال ١/٤٢٩) .

فالظليم عنده مذعور يقطع الصحراء وقد مد جناحيه ، وكل ما يحرص عليه تأبط شرا وصفه بالسرعة ، ومن هنا كثرت فى أبياته تلك المترادفات التى تدل على السرعة ، ولكنه لا يكتفى بهذا بل يعقد بين هذا الظليم وبين الخيل السريعة مباراة ، فإذا هو أسرع منها :

وحثحثتُ مشعوفَ النَّجاء كأنَّنى هِجَفٌ رأى قصرا سِمالا وداجنا
من الحصِّ هُزْرُوفٌ كأَن عِفاءه إذا استدْرَجَ الفيْفا ومدَّ المغابنا
أزَجُّ زَلوجٌ هَذْرَفٌ زَفَازفٌ هِزفٌ يبذ الناجيات الصوافنا[1]

وأما الأعلم فالصورة عنده أكثر خطوطاً وألواناً ، فالظليم عنده سريع يعترض فراخه فى وقت العشية ، وهو غليظ الساقين طويلهما ، وقد تساقط ريشه ، وهو مذعور قد اختبأ بين أشجار طويلة ، فإذا عدا خفق جناحاه خفقان ريح جنوبية بثياب جديدة غير ممزقة :

كأَن ملاءتىَّ على هِزَفٍّ يعنُّ مع العشية للرِّئال
على حت البُراية زَمخرِىّ الـ سواعد ظل فى شَرْىٍ طوال
كأَن جناحه خفقانُ ريح يمانية برَيْطٍ غير بالى[2]

وأما أبو خراش فهو يشير للنعامة فى صدد حديثه عن شدة عدوه إشارة سريعة[3] ، كما يفعل مع حمار الوحش ، وهو لا يقف طويلا عندهما لأنه مشغول بحيوان آخر سريع هو الظبى .

---

(١) الأغانى ١٨ / ٢١٣ — الهزروف : الظليم السريع الخفيف . الحص : جمع أحص هو القليل شعر الرأس . المغابن : جمع مغبن وهو الإبط . الأزج من النعام . البعيد الخطو . الزلوج : الناجى من الغمرات . الهذرف : نسبة إلى الهذرفة وهى السرعة . زفازف : من الزفزفة وهى رى الطائر بنفسه أو بسط جناحيه . هزف : سريع .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ٨٣ ، ٨٤ . وحماسة البحترى / ٦٦ . وروى البيت الأول فى لسان العرب مادة (خرق) وفيه « هجف » مكان « هزف » ، وروى البيت الثانى فى مادة (شرى) ومادة (حت) — الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام أو حوليه . الزمخرى : الأجوف ، وكان العرب يظنون أن النعام لامخ بساقيه . وقوله « على حت البراية » يريد به أنه سريع حتى لا يبقى منه إلا براية . والشرى : شجر .

(٣) ديوان الهذليين ٢ / ١٤٥ — البيت الأول .

والمنظر الذى يتخيره أبو خراش للظبى حين يخرج الصيادون لصيده ، وقد بثوا حبالهم فى مسارحه ليعلق فيها ، ولكنه ينجو منها ، فلا يجد الصيادون مفرًّا من رميه بسهامهم وإطلاق كلابهم خلفه ، ولكنه يفوتها ، ومع ذلك يظل مذعوراً غير مطمئن يصغى إلى ناحيتهم وقد نصب أذنيه كأنهما قطعتا لعدم تحركهما ، فإذا ما سمع صوت ذباب يطوف حوله ذُعر وخيل إليه أنه صوت سهام الرماة ، فانطلق كما ينطلق السهم مخلفاً وراءه غباراً مختلفاً ألوانه كأنه الملاء :

فو الله ما ربداء أو علجُ عانة ... أقبُّ وما إن تيبُس رَبل مصمَّمُ
وبُثتْ حبالٌ فى مرَادٍ يرودُهُ ... فأَخطأَه منها كفافٌ مخَزَّمُ
يطيح إذا الشَّعْراء صاتت بجنبه ... كما طاح قِدْحُ المستفيض المَوَشَّمُ
كأَن الملاء المحْضَ خلف ذراعه ... صُرَاحيُّه والآخِنِيُّ المتحَّمُ
تراه وقد فات الرماة كأَنه ... أمام الكلاب مُصْغىَ الخد أَصْلَمُ
بأَسرعَ منى إذ عرفتُ عديَّهم ... كأَنى لأَوْلاهم من القرْب توأَمُ[1]

ويتردد ذكر الظبى أيضاً فى شعر حاجز ، وهو حيناً يتخير منظر الظبى المذعور الهارب من جوارح الطير بعد أن كاد يلقى الموت فى أظفارها ، كما رأينا فى أبياته الرائية من قبل ، وهو حيناً آخر يذكره مع حيوانين آخرين من حيوان الصحراء السريع : الأرنب ، والوعل ، وهو لهذا يكتفى بأن يذكر أنه ظبى فى منطقة جبلية ، فهو خفيف نشيط قوى ، أما الأرنب فهو يمر بها مرًّا سريعاً ، وأما الوعل فيتخير له منظراً يكون فيه فى أقصى سرعته ، حين يحس الصيادين خلفه ومعهم كلابهم المدربة :

---

(١) المصدر السابق / ١٤٥ ، ١٤٦ . والأغانى ٢١ / ٥٦ — الربداء : النعامة السوداء إلى غبرة . والتيس هنا الذكر من الظباء . والربل : نبت ينبت فى أول الشتاء . وقوله : فى مراد يرودُه أى فى مسارح يسرح فيها . والكفاف : الحبالة يصيدون بها الظباء تجعل كالطوق . والمخزم : المنظم . يطيح : يسرع . والشعراء : ذباب يلسع . والمستفيض : الذى يفيض بالقداح يضرب بها . والموشم : الذى به علامات . وصراحيه : أبيضه . والآخنى : نوع من الثياب . والمتحم : الذى به خطوط خضر وحمر . والأصلم : المستأصل الأذن .

وكأنمـــا ابتعثَ الفوارسُ أرنبا أو ظبيَ رابية خُفَافًا أشعبا
وكأنمـــا طردوا بجنبيْ عاقل صَدَعاً من الأَرْوَى أحس مكلِّبا[1]

وهذان البيتان هما الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذى ورد فيه ذكر للأرنب والوعل فى صدد الحديث عن العدو .

وإذا كان حاجز يشبه نفسه بالظبي الهارب من جوارح الطير فإن أبا خراش يعكس هذه الصورة فيشبه نفسه بالعقاب تطارد صيداً ، فهو يقدم لنا فى بعض قصائده صورة رائعة قوية لتلك المطاردة ، فهى عقاب كاسرة منقضة تطلب الصيد ، ولها فرخ فى رأس جبل ، تحمل له طعامه مما تصيد حتى امتلأ وكرها بعظامه ، وقد رأت على بعد صيداً فتحفزت له ثم انقضت فوقه فى أرض فضاء ليس فيها ما يستره :

كأنى إذ عدَوْا ضَمَّنتُ بزِّى من العقبـــان خائنة طلُوبا
جريمةَ ناهض فى رأس نِيقٍ ترى لعظـــام ما جمعتْ صليبا
رأت قنصاً على فوْت فضَمتْ إلى حيزومهـــا ريشًا رطيبا
فلاقتـــه ببلقعة بَرَازٍ فصادم بين عينيها الجَبُوبا[2]

وهذا أيضاً الموضع الوحيد فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الذى ورد فيه ذكر العقاب فى صدد الحديث عن شدة العدو .

ويشبه أبو خراش ابنه ، والقوم يطاردونه بعد غارة له عليهم ، بطائر خفيف العظم ، قليل اللحم ، عائد إلى وكره ، وقد دنا الليل ، فهو جاد فى طيرانه يبسط جناحيه ويقبضهما فى شدة وقوة :

---

(١) حماسة البحترى / ٦٥ — الخفاف : الخفيف القلب المتوقد . الأشعب : ما كان بين قرنيه بعيدا جدا . الصدع بتحريك الدال وتسكينها : الفتى الشاب القوى . المكلب : معلم الكلاب الصيد . وانظر البيتين أيضاً فى الأغانى ١٢ / ٥٢ (بولاق) مع اختلاف لفظى .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٣٣ ، ١٣٤ — الخائنة : العقاب تنقض على الصيد . الناهض هنا المراد به فرخها ، وقوله « جريمة ناهض » يريد به أنها تكسبه ، وجريمة القوم : كاسبهم . النيق : الشمراخ فى الجبل . الصليب : الودك وهو الدسم ، يقال : صلب العظام إذا استخرج ودكها . على فوت أى على سبق . البراز : الفضاء البارز . الجبوب : الأرض .

كأنهم يَشَبَّثُون بطائر خفيف المُشَاش عظمه غير ذى نَحْض
يبادر قرب الليل فهو مُهَابذ يحث الجناح بالتبسُّط والقبض[1]

وقد نتساءل : أين الخيل بين هذه الفصائل المختلفة من الحيوان السريع ؟ ولماذا لم يذكرها الصعاليك العداءون فى مجال حديثهم عن العدو كما ذكروا هذه الفصائل ؟

يبدو لى أن سبب ذلك أن الصعاليك العدائين كانوا ينظرون إلى الخيل على أنها أقل منهم سرعة ، وهى نظرة يؤيدها واقع حياتهم ، وقد رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول أن رواة الأدب العربى يذكرون عنهم أنهم كانوا يسبقون الخيل ، ويروون عنهم قصصاً فى هذا الصدد ، ومهما يكن من مبالغة فى هذه القصص فإنها تصور أصداء حقيقة واقعية ، وقد فسرنا هذه الظاهرة فى حياة الصعاليك العدائين عند تفسيرنا الجغرافى لظاهرة التصعلك ، وانتهينا إلى أنها — على ما فيها من غرابة — ليست بالمستحيلة فى الحياة الواقعية . فإذا أضفنا إلى هذا أن الصعاليك العدائين لم يكونوا على صلة دائمة بالخيل، وإنما كانت صلتهم بها صلة عداوة ، وهى تلك الصلة بين المطارد والطريد ، مما جعل نفوسهم مشبعة بالسخط على ذلك الحيوان السريع الذى يستغله أعداؤهم فى مطاردتهم ، استطعنا أن نجد تعليلا آخر لهذه المسألة .

ولهذا نلاحظ أن الصعاليك العدائين لا يذكرون الخيل فى صدد الحديث عن عدْوهم إلا مقترنة بأنهم أسرع منها ، أو على الأقل بأنها ليست أسرع منهم، كما نرى عند تأبط شرا الذى يصرح بأنه يسبق الخيل عدْوًا على قدميه ، ويكسو طلائعها المتقدمة الغبار الثائر من عدْوه :

يفوتُ الجيادَ بتقريبه ويكسو هَوادِيها القَسْطلا[2]

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١٥٩ . ولسان العرب : مادة (هبذ) ومادة (هذب) — المشاش : جمع مشاشة وهى رأس العظم الممكن المضغ . النحض : اللحم أو المكتنز منه . المهابذ : الذى يسرع فى طيرانه ، من المهابذة وهى الإسراع فى الطيران .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء / ١٧٦ . وحماسة ابن الشجرى / ٤٧ — التقريب : ضرب من العدو . القسطل : الغبار .

ويحرص الصعاليك العداءون على تسجيل ظاهرة طريفة فى حديثهم عن العدو ، وهى حركة ثيابهم عند عدوهم ، وما يفعلونه أو تفعله الرياح بها ، وهى ظاهرة تستمد طرافتها من صدقها وبساطتها وواقعيتها ، ومن أطرف الأشياء فى هذا الصدد أنهم أكثر ما يذكرون ثيابهم يذكرون أنها بالية ممزقة .

يصف صخر الغى صاحباً له بأنه يعدو فيرفع باطنُ ركبتيه ثوبَه الخلقَ :

ترى عَدوَهُ صُبحَ إقوائه إذا رَفعَ المأبضَان الحَشيفا
كعدو أقبَّ رَباع ترى بفـــائله وَنسَاه نُسوفا[1]

أما أبو خراش فثوبه الخلق البالى يهتز فى أثناء عدوه كأنه ينتفض من حمى تلازمه :

فَعدَّيتُ شيئاً والدَّرِيسُ كأنما يُزَعزعُه وِرْدٌ من المُوم مُرْدِمُ[2]

وهو أحياناً يضيق بثيابه لأنها تعوقه عن سرعة العدو فيطرحها عنه :

وَرَفعتُ ساقًا لا يُخافُ عثارُها وَطَرحتُ عنى بالعرَاء ثيابى[3]

وفى قصيدة أخرى يصف جماعة من العدائين وقد ألقوا ثيابهم عنهم من شدة عدوهم :

وَعادية تُلقى الثياب وَزَعتها كرِجْل الجراد ينتحى شَرَفَ الحزْم[4]

ويتحدث تأبط شرا عن مطاردة حاجز الأزدى وأصحابه له ، ويصفهم بأنهم قد ألقوا عن أجسادهم ثيابهم البالية ، وشمروا عن سيقانهم ليسهل عليهم إدراكه :

فَتعْتعْتُ حِضْنَىْ حاجز وصحابه وقد نَبذوا خلْقَانهم وتشنَّعوا[5]

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٤٨ . وانظر : ص ٢٢٠ من هذا البحث .

(٢) ديوان الهذليين ٢/١٤٤ . والأغانى ٢١/٥٦ . وحماسة البحترى /٦٣ — الدريس : الثوب الخلق . الموم : الحمى . المردم : الملازم .

(٣) ديوان الهذليين ٢/١٦٨ ، وترى للأعلم ولتأبط شرا ، وهذا الاختلاف لا يضيرنا فى شىء فهم جميعاً صعاليك .

(٤) المصدر السابق /١٣٢ — الرجل بالكسر : القطعة العظيمة من الجراد . الحزم : المكان المرتفع كالحزن .

(٥) الأغانى ١٨/٢١٨ ، وفيه « تنعتعت » وواضح أنه تحريف — تعتعه : حركه بعنف . تشنعوا : تهيأوا للقتال .

ومما يتصل بهذا حديثهم عن نعالهم ، ووصفها بأنها بالية ممزقة ، لكثرة سيرهم وعدوهم . يتحدث تأبط شرا عن صعوده إلى المرقبة بنعل بالية ممزقة قد شدها بسيور بعد أن جعل تحتها نعلا أخرى :

بشَرْثة خَلَق يُوقى البنانُ بها شَددتُ فيها سَريحاً بعد إطراق(١)

ويصف الشنفرى نعليه بأنهما ممزقتان كأنهما أشلاء السمانى ، وبأنه خلعهما فى بعض طريقه إما ليسهل عليه عدوه ، وإما لأنهما لم تعودا صالحتين للاستعمال لتمزقهما الشديد :

وَنعل كأشلاء السُّمَانَى تركتها على جنب مَوْر كالنَّحيزة أغبرا(٢)

وهى صورة نجدها عند أبى خراش أيضاً :

ونعل كأشلاء السُّمَانَى نَبذتها خلاف ندى من آخر الليل أو رِهمْ(٣)

ومن الطريف أننا نجد لأبى خراش قصيدة نظمها فى مدح رجل حذاه نعلين جديدتين(٤) ، وهو فيها مقدر له هذا الصنيع تقديراً كبيراً ، معجب بنعليه الجديدتين ، يصفهما ، ويصف صنعهما ، ويتحدث عن قيمتهما فى حياته ، إذ يروح بهما متأنقاً للهوه ، ويستخدمهما فى سيره وعدوه ، ومن يدرى فلعل له فيهما مآرب أخرى ! !

وهنا نقف لنتساءل : أين شعر السليك فى العدو ، وهو الصعلوك العداء الرجلى الذى يُضرب به المثل فى سرعة العدو ، والذى تحدث عن سرعته رواة

---

(١) المفضليات /١٧ – الشرثة : النعل البالية . والسريح : القد أو السيور التى تشد بها النعال . والإطراق : أن يجعل تحت النعل مثلها .

(٢) ديوانه المطبوع /٣٥ . وديوانه المصور : لوحة رقم ١٠ ، وفيه « وأشلاء نعل كالسمانى » المور : الطريق الموطوء المستوى . والنحيزة : لعل أقرب معانيها إلى معنى البيت أنها نسيجة شبه الحزام تكون على الفسطاط .

(٣) ديوان الهذليين ٢ /١٣١ – الرهم : المطر الضعيف الساكن اللين .

(٤) انظرها فى المصدر السابق /١٤٠ ، ١٤١ . وفى الأغانى ٢١ /٥٧ ، ٥٨ .

أخباره والشعراء المعاصرون له ، والذى اتخذه الشعراء من بعدُ مادة طريفة لأحاديثهم عن السرعة ؟

الحق يقال إنها مسألة غريبة ألا نجد للسليك شعراً يتحدث فيه عن سرعة عدوه ، ولكن يبدو أن أقرب الفروض لتعليل هذه المسألة هو أن شعر السليك فى عدوه وسرعته قد فقد . وليس من شك عندى فى أن جانباً كبيراً من شعر السليك قد فُقد ، فليس من المعقول أن كل ما نظمه السليك من شعر لا يعدو تلك الأبيات القليلة المتفرقة فى مصادر الأدب العربى المختلفة . وإذا كنا قد لاحظنا أن مجموعة السليك الفنية لا تضم حديثاً عن هذا الجانب من حياته ، فإننا نلاحظ أيضاً أنها لا تصور جوانب حياته الأخرى تصويراً كاملا أو شبه كامل ، وإنما هى مقطوعات قليلة لا تكاد تصوّر حياة صاحبها . أما صورة حياة السليك فمصدرها الأول أخبار الرواة وأقاصيصهم عنه . ومع ذلك فشعر السليك ــ كما يبدو مما وصل إلينا ــ ليس من الجودة بحيث نأسف على ضياعه ، وقديماً سئل الأصمعى عنه فقال « ليس من الفحول »[١] .

الغزوات على الخيل :

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن غزواتهم على الخيل . وليس هناك ما يمنع الصعاليك من استخدام الخيل فى غزواتهم إذا وجدت ، وليس فى هذا ما يطعن فى مقدرتهم على العدو ، فهى مقدرة معترف لهم بها . هذا إلى أن بعض الصعاليك لم يكونوا عدائين .

وقد عرفت أسماء خيل بعض الصعاليك ، فقرمل فرس عروة بن الورد[٢] ، والنحام فرس السليك[٣] ، واليحموم فرس الشنفرى[٤] .

---

(١) فحولة الشعراء (مخطوطة) ورقة رقم ١٥ .
(٢) ديوانه / ١٢٠ . ولسان العرب : مادة (قرمل) .
(٣) القالى : النوادر / ١٨٥ . ولسان العرب : مادة (نحم) .
(٤) ديوانه المطبوع / ٤٠ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

ويتحدث الصعاليك أحياناً عن غزواتهم على الخيل مقترنة بغزواتهم على الأقدام ، على نحو ما رأينا فى الفصل الأول من الباب الأول من أبيات تأبط شرًّا وعروة . ويتحدثون أحياناً أخرى عن غزواتهم على الخيل حديثاً مستقلا . وهى ظاهرة أكثر ما نجدها فى شعر عروة .

فهو يتوعد حيناً أولئك الأغنياء المطمئنين الذين حسبوا أن لن يجرؤ على غزوهم أحد ، وينذرهم بأنه سوف يفزعهم بخيل نشطة تطرد أمامها إبلهم المنفرة طرداً عنيفاً :

سَيُفْزِع بعد اليأس مَنْ لا يخافنا كواسعُ فى أخرى السَّوَام المنفَّر[1]

وحيناً آخر يصرح بأنه لن يكف عن المغامرة فى سبيل الغنى ومعه جماعة من الصعاليك الفرسان حتى يحقق أهدافه أو يُعذر نفسه :

فإنى لمُسْتافُ البلاد بسربة فمبلغُ نفسى عُذرَها أو مطوف[2]

ويشير أحياناً أخرى إلى نجاته من مأزق حرج على ظهر جواده « قرمل » ، وهو يَعد ذلك منةً لهذا الجواد لا تنسى :

كليلة شيباء التى لستُ ناسيا وليلتنا إذ مَنّ ما مَن قَرْمل[3]

ويصرّح السليك ، ذلك الرجلىّ الذى يضرب به المثل فى سرعة العدو ، بشدة حاجته إلى فرسه فى أثناء غارات أصحابه الفرسان على أهدافهم :

وما يدريك ما فَقرى إليه إذا ما الركب فى نهب أغاروا[4]

وكذلك الشنفرى ، ذلك الرجلىّ الآخر الذى يضرب به المثل أيضاً فى سرعة العدو ، يتحدث عن فرسه حديثاً طريفاً ، ففرسه لا عيب فيه سوى هزاله ، ولكنه جرىء مقدام ، تطغى جرأته وإقدامه فى أثناء القتال على هزاله ، بل إن الخيل السمينة لا تستطيع الوقوف أمامه :

---

(١) ديوانه / ٨٣ .
(٢) ديوانه / ٩٣ .
(٣) ديوانه / ١٢٠ .
(٤) لسان العرب : مادة (ركب) .

ولاعيبَ فى اليحْموم غيرهزاله على أنه يوم الهيّاج سمينُ
وكم من عظيم الخلْق عبل موثَّق حواه ، وفيه بعدَ ذاك جنون(١)

وطرافة الصورة تأتى من أن الشنفرى يُضْفى صفات التصعلك على جواده ، فهو جواد هزيل كصاحبه ، جنى عليهما الفقر والجوع ، ولكنه كصاحبه أيضاً جرىء مقدام ، كأنما يشعر كما يشعر صاحبه بأن الحق للقوة ، وأن الرزق فى الشجاعة ، وأن الجواد الخامل كالصعلوك الخامل . وتأتى طرافة الصورة أيضاً من أن الشنفرى يلوّن صورة جواده بألوان مغامراته هو ، فإذا جواده صورة منه ، كم حوى من خيل سمينة قوية موثقة ، كشأنه هو مع أفراد مجتمعه الأغنياء ، وهكذا يقدم لنا الشنفرى جواده على أنه « جوادٌ صعلوكٌ » .

فإذا ما قتل الشنفرى ، وفزع صديقه الحميم وأستاذه تأبط شرا لأحزانه عليه يستمد منها رثاءه له ، لم ينس ذلك « الجواد الصعلوك » فخصه ببيتين رائعين من مرثيته ، عند حديثه عن الوسائل التى كان يعتمد عليها الشنفرى فى قتاله ، عزمه ، وقوسه ، وسيفه ، وفرسه :

وأشقرُ غَيداقُ الجراء كأنه عُقابٌ تَدلَّى بين نيقَين كاسرُ
يَجم جُمومَ البحر طال عُبابه إذا فاض منه أوّلٌ جاش آخر(٢)

الآراء الاجتماعية والاقتصادية :

من الطبيعى أن يعلل الشعراء الصعاليك لمغامراتهم الدامية التى وهبوا لها حياتهم ، وأن يفسروا الدوافع التى دفعتهم إلى تلك الثورة التى أشعلوها فى وجه مجتمعهم ، حتى تكون حركتهم التى وصفها مجتمعهم بالشذوذ قائمةً على أساس معلل مسبب ، وحتى تكون إجاباتهم حاضرة لكل من يسألهم :

---

(١) ديوانه المطبوع /٤٠ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤٠٠ .

(٢) ديوان الشنفرى فى الطرائف الأدبية /٢٨ . وحماسة الخالديين (مخطوطة) ورقة رقم ٤١٧ — الغيداق : الطويل . والجراء : الجرى . والنيق : أرفع موضع فى الجبل . وجم الماء : كثر واجتمع .

لم فعلتم هذا ؟ وحتى يهيئوا للباحثين فى حركتهم أن يعرفوا أسبابها ودوافعها .

وقد رأينا فى الباب الأول أن حركة الصعاليك قامت نتيجة لعوامل ثلاثة : عامل جغرافى ، وعامل اجتماعى ، وعامل اقتصادى ، وأن العامل الجغرافى — وإن يكن أولَ هذه العوامل — ليس العامل المباشر ، وإنما العامل الاجتماعى والعامل الاقتصادى هما العاملان المباشران فى قيام هذه الحركة . وليس من شك فى أن الشعراء الصعاليك كانوا يشعرون بهذه المعانى شعور المتصل بها الآخذ بأسبابها . وقد أدرك الشعراء الصعاليك عن طريق هذا الشعور أن حديثهم عن العامل الجغرافى لن يجدى حركتهم شيئاً ، ولن يضيف إلى حيثيات الحكم فى قضيتهم ما يفيدها ، لأنه عامل عام يشترك فى التأثر به مجتمعهم كله ، وإنما الذى ينفع قضيتهم ، ويصلح مادةً للدفاع عنها العاملان الآخران الاجتماعى والاقتصادى ، ومن هنا حرصوا كل الحرص على تسجيل آرائهم الاجتماعية والاقتصادية .

ومن الطبيعى أن يتحدث الصعاليك عن انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، تلك الظاهرة التى كان لها أكبر الأثر فى تصعلكهم ، والتى تُعد نقطة التحول أو الحد الفاصل بين حياتهم القبلية بما فيها من توافق اجتماعى ، وبين حياتهم المتصعلكة بما فيها من شذوذ .

يعلن حاجز فى صراحة أنه — وإن يكن أزديا من سَلامان — أصبح منتسباً إلى بنى مخزوم من قريش ففيهم حلفه ، وهم لا يخذلونه إذا استنصر بهم وإنما يسرعون شجعاناً إلى نجدته :

قومى سَلامانُ إذ ما كنت سائلةً ... وفى قريش كريم الحلْف والنَّسَبِ

إنى متى أَدعُ مخْزُوما تَرَىْ عُنُقاً ... لا يَرْعَشون لضرب القوم منْ كثب[1]

ويدعو قيس بن الحدادية أن يجزى الله عنه خيراً أولئك الذين حَمَوْه بعد أن خلعه قومه ، فما يملك شيئاً ليجزيهم به ، وهو الصعلوك الفقير ، سوى

---

(١) الأغانى ١٢ / ٤٩ (بولاق) — العنق : الجماعة من الناس والرؤساء .

ذلك الدعاء الصادق الصادر من أعماق نفسه :

جَزَى اللهُ خيرًا عن خليع مُطَرَّد ... رجالا حموه آلَ عمرو بن خالد

وماله لا يدعو لهم وقد آووه ، وعطفوا عليه ، ونصروه بعزهم وشرفهم وبأبنائهم الأبطال الأمجاد :

وقد حَدِبت عمرو عليَّ بعزها ... وأبناؤهـا منْ كل أَروعَ ماجد

وهو لهذا يعلن على الملأ أن هؤلاء القوم الذين لجأ إليهم ، إنما هم الأصحاب والأهل والثروة والنصر :

أولئك إخوانى وجل عشيرتى ... وثروتهم والنصرُ غير المحارد(١)

بل إن أبا الطمحان يعلن أنه قد نسى أهله فى جوار من استجار بهم بعد خلعه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، حتى لقد عرفت كلابهم ثيابه فما تهرّ عليه :

وقد عَرَفتْ كلابهمُ ثيابى ... كأنى منهمُ ونسيتُ أهلى(٢)

ولا ينسى الصعاليك الخلعاء خلع قبائلهم لهم حتى فى آخر لحظات حياتهم ، حين يمر بهم ماضيهم الحافل بالمغامرة والكفاح ، فإذا قصة الخلع هى الحد الفاصل بين حياتين ، والسر الأول فى تلك الحياة القاسية التى عاشوها ، والتى يودعونها فى هذه اللحظات . هذا قيس بن الحدادية يقاتل أعداءه الذين تكاثروا عليه حتى قُتل وهو يرتجز ذاكراً أول ما يذكر قصة خلعه وبغض أهله له .

أنا الذى تخلعه مَواليهْ ... وكلهم بعد الصفا قاليهْ

وكلهم يقسم لا يباليه(٣)

وإذا كان الصعاليك الخلعاء والشذاذ قد صوّروا فى شعرهم هذه العقد النفسية التى كان منشؤها انقطاع الصلة بينهم وبين قبائلهم ، فإن الصعاليك الأغربة لم يتحدثوا فى شعرهم عن ظاهرة اللون التى كانت عقدة العقد فى حياتهم ، والتى كانت سبباً فى انعدام التوافق الاجتماعى بينهم وبين قبائلهم ، وفيما عدا

---

(١) الأغانى ١٣ / ٥ (بولاق) — المحارد : من حاردت الناقة إذا انقطعت ألبانها أو قلت .

(٢) الجاحظ : الحيوان ١ / ٣٨٠ .

(٣) الأغانى ١٣ / ٨ (بولاق) . وابن حبيب : من نسب إلى أمه من الشعراء / ٦ .

تلك المقطوعة التى أشار فيها الشنفرى إلى أنه هجين[١] لا نكاد نعثر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك الأغربة على إشارة إلى هذه الظاهرة ذات الأثر البعيد فى حياتهم .

والذى يبدو لى تعليلا لهذا هو أن الصعاليك الأغربة كانوا يجدون غضاضة فى الحديث عن هذه الظاهرة التى كانت مصدر احتقار المجتمع الجاهلى لهم ، حتى إن إشارة الشنفرى إليها فى تلك المقطوعة السابقة كانت إشارة ملتوية تبدو عليها محاولة التنصل منها ، أو على الأقل الدفاع عنها . كما أن حديثهم عنها لا يفيدهم شيئاً فى قضيتهم ، لأنها ظاهرة خلقية لا يدَ لهم فيها ، ولا قدرة لهم على تغييرها ، وهذا عكس الفقر الذى كثر حديثهم عنه ، فهو ظاهرة يستطيعون دفعها وتغييرها ، والمقصر فى هذا من الصعاليك الخاملين عليه وزره ، وعليه لعنة الصعاليك العاملين ، وهذا — بطبيعة الحال — إذا لم يكن فيما فُقد من شعر الصعاليك الأغربة حديث عنها .

أما عقدة العقد التى اشترك فيها جميع الصعاليك ، وتحدث عنها جميع شعرائهم فهى الفقر . تلك الظاهرة الاجتماعية الاقتصادية التى كانت السبب الأقوى فى تصعلكهم .

ويتحدث الشعراء الصعاليك فى أكثر من موضع من شعرهم عن فقرهم ، وأسبابه ، وتأثيره فى أجسامهم ، وأثره فى حياتهم الاجتماعية ، والوسائل التى يسلكونها للتخلص منه ، والأسباب التى يحرصون من أجلها على التخلص منه ، إلى غير ذلك من ألوان الحديث .

يصوّر الأعلم الهذلى فقره فى صورة بدوية ساذجة ، ولكنها طريفة :

زَعمتْ خَنَازِ بأَن بُرْمتنا   تَغْلى بلحم غير ذى شحم[٢]

والشاعر الصعلوك هنا قد سجل على نفسه الفقر . ولن تجديه شيئاً هذه

---

(١) ديوانه المطبوع / ٤٠ قصيدة حرف (ا ك) ، وديوانه المصور لوحة رقم ٢ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٥ ، ولسان العرب مادة (خنز) وفيه « تجرى » مكان « تغلى » — وخناز : لقب امرأة ، والخناز فى اللغة : المنتنة .

المحاولة « المكشوفة » لمداراة فقره حين ادعى أنه زعم من هذه المرأة التى يسبها ، ومع ذلك فهو يردّ عليها فى آخر مقطوعته بأنه يفخر بأكل هذا اللحم الهزيل ، ما دامت نفسه لم يمسسها عار ولا إثم :

إنا لنأكل لحمنا ،فاستيقنى فى غير مَنْقَصَة ولا إثم[1]

وفى قصيدته البائية المشهورة يرسم صورة إنسانية مؤثرة له ، وهو يفر من أعدائه بعد مغامرة من مغامراته فى سبيل العيش ، وقد ذكر أهله الفقراء فى صحرائهم المجدبة ، وحاجة أولاده الصغار الشعث الذين خلفهم وراءه فى العراء ولا شىء لهم سوى تلك الذلة التى تبدو عليهم كلما نظروا لمحاً إلى أقاربهم فى انتظار شىء يجودون به عليهم :

وذَكرْتُ أهلىَ بالعرَا ء وحاجةَ الشعث التوالبْ
المصرمين من التـــلا د اللامحين إلى الأقارب[2]

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أسباب فقرهم ، وهم يردونه عادة إلى كرمهم وإسرافهم . فعروة أبو الصعاليك يرد فقره إلى بذله ماله للفقراء المحتاجين الذين يأتون إليه يشكون فقرهم وعوزهم وكثرة أولادهم :

إذا قلتُ قد جاء الغنى حال دونه أبو صبْيَة يشكو المَقاقر أعجفُ
له خَلَّةٌ لا يدخل الحق دونها كريمٌ أصابته خطوب تجرَّفُ[3]

ويسجل تأبط شرًا فى قافيته المفضلية حواراً بينه وبين شخص يعذله على كرمه وإسرافه ، يصوّر نفسه فيه كريماً لا يُبقى على شىء عنده ، مغامراً فى سبيل الحصول على مزيد من المال ليرْضى به مطالب كرمه ، وماذا فى الحياة يدفعه إلى الحرص ما دام كل ما فيها فانياً مهما يحرص الإنسان عليه :

بل مَنْ لَعذَّالة خَذَّالة أشب حَرَّق باللوم جلدى أىّ تحراق
يقول أهلكتَ مالا لو قَنعتَ به من ثوب صدقٍ ومن بَز وأعلاق

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٦ .
(٢) المصدر السابق /٥٨ . وانظر ص ٢١٣ من هذا البحث .
(٣) ديوانه /٩٢ . وحماسة أبى تمام ٤/١٢٢ .

عاذلتى إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاع وإنْ أبقيتهُ باق[1]

ويذكر أبو خراش أنه كريم يدعو امرأته دائماً إلى ألا تدخر شيئاً، ولا تبقى لغد شيئاً ، فإذا لم يجدا فى غد بعض زادهما فسيحاول أن يحصل لها على زاد غيره ، أو فلتمسك فمها عن الطعام :

لقد علمتْ أم الأُديبر أننى أقول لها : هَدِّى ولا تَدْخَرى لحمى

فإن غدا إلاَّ نجِدْ بعض زادنا نُفِئْ لك زادًا أو نُعَدِّك بالأَزْم[2]

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن أثر الفقر فى أجسامهم ، وما يحمله لهم من جوع وهزال . وقد مرّ بنا[3] حديث السليك عن فعل الجوع به فى أشهر الصيف المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار ، حتّى لقد أوشك أن يفقد حياته صريع الفقر والجوع والهزال ، أو — بعبارة أخرى — صريع الصعلكة :

وما نلتها حتّى تَصَعلكتُ حقبةً وكدتُ لأَسباب المنية أعرف

وحتى رأيتُ الجوع بالصيف ضرنى إذا قمت تغشانى ظلالٌ فأُسدف

ويرسم تأبط شرًّا فى بعض شعره صورة لجسمه دقيقة كل الدقة ، صورة الشخص الذى لا يُبقى من الزاد إلا ما يتعلل به ، حتّى لقد نشزت أضلاعه ، والتصق معاه :

قليل ادخار الزاد إلا تَعلة فقد نَشزَ الشرْسُوفُ والتصق المعى[4]

وينظر بعض الشعراء الصعاليك إلى المسألة من زاوية أخرى ، فيتحدثون عن صبرهم على الجوع واحتمالهم له ، متخذين من هذا الحديث مجالا للفخر

---

(١) المفضليات /١٨ — الخذالة : الذى يخذله فى إرادته ويخالفه فيها . والأشب : المخلط عليه المعترض . والبيت الثانى معناه أنه يأمره أن يبخل ويمسك عليه ماله حتى يستغنى عن الغزو ولا يحتاج إلى طلب المال (انظر شرح ابن الأنبارى) .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٢٥ — هدى : أى اقسمى هديتك وما عندك . الأزم : الإمساك وترك الأكل .

(٣) انظر الباب الأول : الفصل الأول (التعريف بالصعلكة) ص ٣٠ .

(٤) حماسة أبى تمام ٢ /٢٧ ، والأغانى ١٨ /٢١٧ .

بقوة نفوسهم وصدق عزائمهم ، ولكننا نلاحظ أن بين النظرتين فرقاً فى المجال : فأما الذين يشكون من الجوع فإنهم يتحدثون عن ذلك فى مجال حديثهم عن مغامراتهم المتمردة ، وأما الذين يتحدثون عن صبرهم عليه فإنهم يتحدثون عن ذلك فى مجال حديثهم عن قوة نفوسهم .

ويقدم لنا أبو خراش صورةً نبيلة لذلك الجوع . الذى يُطيل حَبسه حتى يَمله فيمضى عنه دون أن يلحقه منه عار ، وهو يكتفى بالماء القراح فى حين يستمتع البخلاء الأشحاء بزادهم ، فإذا ما تلظى الجوع فى بطنه فإنه يرده ويغلبه على أمره ، وهو يؤثر عياله على نفسه بالطعام ، وهو يفعل ذلك كله حتى يعيش حياة كريمة مترفعة لا تسقط إلى مهاوى المذلة والهوان والعار حيث يكون الموت خيراً من الحياة :

وإنى لأثوى الجوعَ حتى يَملنى ... فيذهبَ لم يَدْنَسْ ثيابى ولا جِرْمى
وأغتبقُ الماءَ القَراحَ فأنتهى ... إذا الزاد أمسى للمزَلَّج ذا طعْم
أرد شُجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطُّعْم
مخافةَ أن أحيا برَغم وذلة ... وللموتُ خير من حياة على رغم[1]

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن تلك السياط النفسية التى يصبها الفقر على نفوسهم ، والتى تحدثنا عنها فى الفصل الأول من الباب الأول .

وفى شعر عروة أحاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك الاجتماعية ، ومقامهم خلف أدبار البيوت ، وسوء منظرهم فى هذا المقام الذليل ، وعن تلك الغضاضة التى يراها عليهم ، وكيف يتوارون من الناس ، فلا يقيمون إلا حيث لا يراهم أحد ، وعن ضيق أقاربهم حتى ليوشكوا أن ينكروا قرابتهم لهم :

رأيتُ بنى لبنىَ عليهم غضاضةٌ ... ببيوتهمُ وسط الحلول التكنُّف[2]
ذرينى أطوِّفْ فى البلاد لعلنى ... أخليك أو أغنيك عن سوء مَحْضر
فإن فاز سهمٌ للمنية لم أكن ... جَزوعاً ، وهل عن ذاك منْ متأخَّر

(١) ديوان الهذليين ٢/١٢٧ ، ١٢٨ ، والأغانى ٢١/٦٠ – المزلج : البخيل .
(٢) ديوانه / ٩٤ .

وإن فاز سهمى كفكم عن مَقاعد لكم خلفَ أدبار البيوت ومنظر[1]

إذا المرءُ لم يَطلبْ مَعاشاً لنفسه شكا الفقر أو لامَ الصديقَ فأكثرا
وصار على الأدنَين كَلاًّ ،وأوشكتْ صلاتُ ذوي القربى له أن تَنكرا[2]

ويرسم السليك صورة إنسانية مؤثرة لما تلاقيه خالاته الإماء السود من الضيم والهوان ، وهو عاجز لفقره عن أن يفعل من أجلهن شيئاً حتى ليشيب رأسه مما يقاسيه نفسيًّا من أجلهن :

أشابَ الرأسَ أنىَ كل يوم أرى لى خالةً وَسطَ الرحال
يَشُقُّ علىَّ أن يلقين ضَيما ويعجز عن تخلصهن مالى[3]

والسليك فى هذين البيتين لا يقصد خالاته القريبات شقيقات أمه بالذات ، ولكنه يقصد بهن عامة الجنس ، فهو يصوّر فيهما هوان الجنس الأسود الذى تنتمى إليه خالاته ، ويقول المبرد « وإنما توجّع لخالاته لأنهن كنّ إماء »[4].

ومن الطبيعى أن يتحدث الشعراء الصعاليك ، بعد أن عرضوا لمشكلة الفقر وآثرها وأسبابها ، عن آرائهم فيها ، وكيف يكون السبيل إلى حلها . والسبيل الوحيد إلى ذلك عندهم ، كما أسلفنا ، الثورة على المجتمع ، أو بالذات على طبقة المالة فيه ، واغتصاب حقوقهم منها ، معتمدين على قوتهم ، مهما يكلفهم ذلك من ثمن.

وقد صوّر الشعراء الصعاليك هذا كله فى شعرهم ، فكما تحدثوا عن مغامراتهم وهى الناحية العملية من حلهم للمشكلة ، تحدثوا عن الناحية النظرية فيها ، فسجلوا آراءهم الاجتماعية والاقتصادية تسجيلا صادقاً بارعاً .

فهم يحتقرون تلك الطائفة الخاملة من الصعاليك الذين قبلوا وضعهم الاجتماعى الذليل وقنعوا به ، فعاشوا على هامش المجتمع ينتظرون من فضلات

---

(١) ديوانه /٦٧ .
(٢) ديوانه /١٩٠ .
(٣) المبرد : الكامل /٢٩٩ . والبغدادى : خزانة الأدب ٣/١٢٨ وفيها « يعز » مكان « يشق » .
(٤) الكامل /٢٩٩ .

الأغنياء ما يسدون به رمقهم ، ويعدون ذلك الغنى كل الغنى ، لا يفكرون إلا فى أنفسهم يلتمسون لها ذلك الزاد القليل الذليل ، أما التفكير فى أن يكون لهم من الثراء ما يُطعمون به غيرهم ، ويسجلون به لأنفسهم أحاديث خالدة تتناقلها الأجيال من بعدهم ، فهذا أبعد الأشياء عن محيط نفوسهم الضعيفة التى تحيا حياة خاملة متكاسلة أقصى ما فيها من عمل خدمة النساء « الأرستقراطيات » إذا احتجن إليهم .

أما الصورة التى يريدون أن يكون عليها أفراد جماعة الصعاليك فهى صورة الصعلوك المغامر القوى النفس والجسد ، الذى يشرق وجهه فى أوقات الشدة ، والذى يهب حياته للمغامرة ، ويبث الرعب فى قلوب أعدائه حتى ليخشونه فى وجوده وفى غيابه ، فإذا استغنى فإنه جدير بهذا الغنى لأنه حصل عليه بقوته ، وإذا جاءه أجله فى ميدان كفاحه فليمض إلى ربه حميداً مبرأ من العار والذم[1] .

وهم حريصون كل الحرص على أن يفرق المجتمع بين هاتين الطائفتين ، وكم يتمنون لو عرف لكل طائفة قيمتها ، فاحتقر الأولى ، وقدرَ الأخرى حق قدرها . وهذا السليك يوضح ذلك الفرق لصاحبته حتى تكون على بينة من أمرها فلا تخلط بينه وبين صعاليك الطائفة الأولى الخاملة الضعيفة ، لعلها إن أدركت هذا الفرق كفت عن هجره ونال إعجابها :

ألا عَتَبتْ علىَّ فَصَارمتنى ... وأعجبها ذوو اللمم الطوالِ
فإنى يا ابنة الأقوام أُربى ... على فَضْل الوَضىء من الرجال
فلا تَصلى بصعلوك نَئوم ... إذا أمسى يُعد من العيـــال
ولكنْ كلّ صعلوك ضَروب ... بنصل السيف هامات الرجال[2]

---

(١) انظر الحديث عن هاتين الصورتين : صورتى الصعلوك الخامل والصعلوك العامل فى رائية عروة فى ديوانه /٧٣ – ٨٢ والأصمعيات /٢٩ ، ٣٠ وجمهرة أشعار العرب /١١٥ ، وحماسة أبى تمام ١/٢١٩ ، ٢٢٠ . وانظر ص ٣٢٩ من هذا البحث .

(٢) المبرد : الكامل /٢٩٨ .

وما دام الأمر كذلك فليرسموا لأولئك الذين آمنوا بدعوتهم خطة العمل ، وليحببوها إلى قلوبهم ، وليدافعوا عنها وعنهم كما دفعوهم إليها . وقد ترددت هذه المعانى كثيراً فى شعرهم ، ووقف عروة بن الورد بالذات — كما يقف صاحب المذهب — يدعو إلى مذهبه ويحببه إلى قلوب الناس ، ويدافع عنه . وليس فى هذا غرابة ، فلم يكن عروة يعد نفسه صعلوكاً من الصعاليك ، وإنما كان يعد نفسه زعيما للصعاليك ، أو داعية لفلسفة التصعلك ، إن صحت العبارة . وبهذه النظرة نظر إليه رفاقه ، وبحق سموه أبا الصعاليك[1] .

والخطة العملية فى فلسفتهم الغزو والإغارة ، وكما كثر فى شعرهم الحديث عن الجانب التنفيذى من هذه الخطة ، كثر أيضاً حديثهم عن الجانب التشريعى منها ، أو بعبارة أخرى كثرت دعوتهم إليها . وأكثر من ظهر عنده هذا الجانب التشريعى عروة بحكم وضعه داعيةً لفلسفة الصعلكة . وأساس دعوتهم أن هذه الخطة هى السبيل الوحيدة للغنى لمن هو فى مثل حالتهم :

متى تَطلب المالَ الممنَّع بالقنا تَعِشْ ماجدًا أو تَخْترمك المخارم[2]

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الأهداف التى يقصدونها بغزواتهم ، فيحددون تلك الطوائف من مجتمعهم التى يرون أن يوجهوا إليها رءوس حرابهم . ومن الطبيعى أن تكون طبقة المالة أكثر طبقات مجتمعهم تعرضاً لغزواتهم ، لأنها الهدف الدسم الذى يسيل له لعابهم . ويتحدث تأبط شرا عن ثلاث طوائف من هؤلاء المالة كان يوجه إليهم غزواته : أصحاب المواشى ، وأصحاب المزارع الخصبة ، وأصحاب النوق الحوامل :

فيوماً على أهل المواشى وتارة لأهل رَكيب ذى ثميل وسنبل[3]

ولكنَّ أربابَ المخاض يَشُفهمْ إذا اقتفروه واحدًا أو مشيَّعَا[4]

---

(١) الأغانى ٣/٨١ .

(٢) عمرو بن براقة فى الأمالى للقالى ٢/١٢٢ .

(٣) لسان العرب : مادة (ركب) ومادة (ثمل) — الركيب : المزرعة . والثميل : الحب .

(٤) حماسة أبى تمام ٢/٢٨ ، والأغانى ١٨/٢١٧ — يشفهم : يهزلم ، ويكد عيشهم . واقتفروه : تتبعوا أثره .

أما الأعلم فإنه يقصد أولئك السمان المترفين ضعاف القلوب ، وهو يرسم فى مقطوعة له صورة ساخرة طريفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافاً لغزواته ، فهو رجل غنى سمين مترف ، يعيش بين الستائر والحظائر ، وجنّبت امرأته إليه برها وعنايتها حتى سمّنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب لو اخترق صحراء لفزّعته شخوصُها ، ولحسب كل شخص فيها فارساً ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله فى أرجائها ، الذين إذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم يحاول صاحبه إصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ، ويفر هارباً ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى :

أَيسخط غَزونا رجلٌ سمين ... تُكنِّنه السنارة والكنيفُ

ولو رَفَّعتُ ثوبك فى خروق ... تَرُوعك فى مهالكها الشُّدوف

تخاف لِزام عادِيةٍ ثَعول ... كما يتفجر الحوضُ اللقيفُ

إذنْ لذكرت حالك غَيرَ عصر ... وأفسدَ صُنعَها فيك الوجيفُ [1]

أما أولئك الصعاليك الذين خلعتهم قبائلهم ، أو خلعوا هم أنفسهم منها ، فكما يشاركون غيرهم من الصعاليك فى غزوهم أولئك الأغنياء ، يحرصون — إلى جانب ذلك — على الانتقام من أولئك الذين كانوا سبباً فى صعلكتهم . ومن هنا نجد أن لهم أهدافاً أخرى غير هؤلاء الأغنياء . كما كان يفعل الشنفرى مع بنى سلامان .

ويتحدث الشعراء الصعاليك أيضاً عن الغاية التى يريدون أن يصلوا إليها من وراء هذه الخطة الدامية التى يسلكونها فى حياتهم ، وهى — بطبيعة الحال — الغنى . ويسجل الأعلم فى أبيات له الأسباب التى يحرص على الغنى من أجلها

---

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٨ ، ٦٩ — الخروق : جمع خرق وهو القفر والأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح . والشدوف : جمع شدف (بالتحريك) وهو الشخص . واللزام : العذاب . والثعول : التى لها زيادات بمنزلة الضرع . واللقيف : الذى أصلحه صاحبه فطينه وسواه من نواحيه . والوجيف : ضرب من السير ، أو هو الاضطراب .

فى ثلاثة : فأمواله تُغنيه عن الناس من ناحية ، وهو يُعين بها الداعين إذا حلت بهم عظيمة من ناحية ثانية ، ثم هو — من ناحية ثالثة — يعدّها للأضياف والمعوزين فى أيام الجدب والشدة التى لا يجد الناسُ فيها ما يُطعمون به مَنْ بَكرتْ بغلام ، ولا تجد الأم شيئاً تُسكت به فطيمها عن البكاء والصراخ جوعاً :

أخُبَيْشِىُّ إنا قد يُمتعنا الغنَى   بأموالنا نريحها ونُسيمها
ونحبسها على العظائم نَتَّقى   بها دعوة الداعين ، إنا نقيمها
إذا النفَسَاء لم تخَرَّسْ ببِكرها   غلامًا ، ولم يَسكت بحَتْر فطيمها[1]

ويذكر صخر الغى أنه قتل رجلا من مزينة وسلبه ماله ، ليقوى به مال رجل فقير كريم لا يكاد يثبت له مال :

فى المزنى الذى حَشَشتُ به   مَالَ ضَريك تلاده نَكِدُ[2]

أحاديث التشرد :

قلنا إن هذه الحياة الواقفة فى وجه المجتمع المتمردة عليه الخارجة على نظمه ، كان من أثرها أن فقد المجتمع اطمئنانه إلى أصحابها ، كما فقد هؤلاء طمأنينتهم فيه ، وقلنا إن النتيجة الطبيعية لهذا كانت هى التشرد .

وقد تحدث الشعراء الصعاليك عن تشردهم فى أرجاء الصحراء الموحشة ، ووديانها المخيفة ، وافتخروا باهتدائهم فيها دون دليل ، أو قيامهم بمهمة الدليل لجماعة من رفاقهم ، واتخذوا من هذا مادة للفخر بأنفسهم ، أو لمدح رفاقهم الصعاليك . يفتخر تأبط شرا — فى حديثه إلى امرأة خطبها فامتنعت عليه — بأنه لطول تشرده ألفته وحش الصحراء واطمأنت إليه ، حتى لتوشك أن تصافحه لو أن وحشاً تصافح إنساً :

يبيتُ بمغنى الوحش حتى ألِفنه   ويُصبح لا يحمِى لها الدهر مرتعا

(١) شرح أشعار الهذليين ١/٦٧ . و « بها » فى البيت الثانى ساقطة ، ولا يستقيم الوزن بدونها . الخرسة : طعام الولادة . والحتر : الشيء القليل .

(٢) المصدر السابق /١٣ — حششت به : قويت به . ضريك : فقير .

رأين فتى لا صيدَ وحشٍ يهمه فلو صافحتْ إنساً لصافحنه معا [١]

ويفتخر فى قافيته المشهورة بكرمه وتشرده ، ويتوعد عاذليه إنْ لم يكفوا عن عذله بترك ديارهم والمضىّ متشرداً فى الآفاق البعيدة حتى يختفى عنهم وما هم بقادرين على معرفة مكانه مهما يجدّوا فى السؤال عنه :

إنى زعيمٌ لئن لم تتركوا عَذَلى أَنْ يسأل الحىُّ عنى أهلَ آفاق

أن يسأل القومُ عنى أهل معرفة فلا يخبِّرهم عن ثابت لاق [٢]

ويمدح صديقاً له من الصعاليك ، فلا يجد خيراً من أن يبدأ مدحه بذكر تشرده :

قليل التشكى للمهمِّ يصيبه كثير الهوى شَتّى النوى والمسالك

يظل بمَوْماة ويمسى بغيرها جَحيشاً ويعْرَوْرِى ظهورَ المهالك [٣]

ثم يمدحه بطائفة من المعانى الأخرى ، ولكنه لا ينسى أن يختم مقطوعته بذكر تشرده مرة أخرى ، كأنما هو حريص على أن يؤكد هذه الميزة لصاحبه الذى بلغ به تشرده أن أصبحت الوحشة أنسه الأنيس ، والصحراء الغامضة المجهولة كتاباً مفتوحاً يهتدى فيه كما تهتدى الشمس فى فلكها :

يَرى الوحشةَ الأُنْسَ الأَنيسَ ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك [٤]

ويفتخر عروة بمقدرته على الاهتداء فى الفلاة الغامضة المخوفة التى يُعرض سالكها نفسه للمهالك من غير أن يستشير أحداً أو يستعين بأحد :

وغبراءَ مخشىٍّ رَداها مَخوفة أَخوها بأَسباب المنايا مغَرَّرُ

قَطعتُ بها شَكَّ الخِلاَجِ ولم أقل لخيابة هَيَّابة كيف تأمر [٥]

(١) الأغانى ١٨/٢١٧ .

(٢) المفضليات /١٨ . وابن قتيبة : الشعر والشعراء /١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) حماسة أبى تمام ١/٤٧ – جحيشا : منفردا . يعروروى : يركب .

(٤) المصدر السابق /٤٩ .

(٥) ديوانه /١٣٠ – غبراء : مظلمة ليست بمسفرة الطرق . وشك الخلاج : مايخالجه ويشككه .

وتأخذ الصورة عند أبي خراش وضعاً آخر ، فهو لايقنع باهتدائه فى مجاهل الصحراء ، بل يذكر فى مجال فخره أنه يهدى رفاقه فى الليالى المظلمة :

وإنى لأهدِى القوم فى ليلة الدجى وأرمى إذا ما قيل هل مِنْ فتى يَرمى(١)

ويتحدث الشعراء الصعاليك عن أماكن تشردهم فى قلب الصحراء ، وبعدها عن المناطق المأنوسة، وما يحيط بها من أهوال ، وما يكتنف الطريق إليها من مخاوف .

يتحدث تأبط شرا عن شِعب من شعاب الصحراء ، فى جهة نائية مهجورة ،ضَرَبت حوله الجبال نطاقاً ، حتى غدا الطريق إليه وعراً ، وملأته الصخور ، وتجمعت فيه آثار من مياه قديمة لا تُعرف مصادرها ،ويفتخر بأنه اهتدى إليه دون دليل ، ودون أن يسأل أحداً عنه :

وشِعبٍ كشَلِّ الثوب شَكْسٍ طريقه مَجَامِعُ صَوْحيه نطاقٌ مُحَاصِرُ
به من سيول الصيف بِيضٌ أقرها جُبارٌ ، لصُمِّ الصخر فيه قَرَاقرُ
تبطنته بالقوم ، لم يَهدنى له دليلٌ ، ولم يُثبتْ لىَ النعتَ خابرُ
به سَمَلاتٌ من مياه قديمة مواردهـا ما إنْ لهن مصادرُ(٢)

ويتحدث الشنفرى عن واد بعيد فى أعماق الصحراء ملتف الشجر ، قد ألفته الجن والآساد ، حتى بات يخشاه المغامرون الشجعان ، وكيف أقدم فى جرأة وشجاعة على السير فيه فى وقت مبكر قبل أن يتطاير الندى عن أشجاره :

ووَاد بعيد العَمْق ضَنك جماعه بواطنُه للجن والأُسْد مَألَفُ
تَعسَّفتُ منه بعد ما سَقط الندى غَماليلَ يَخشى غِيلها المتعسفُ(٣)

وقد قلنا إنه نتيجة لهذا التشرد وردت فى أشعار الصعاليك أحاديث كثيرة

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٣١ .

(٢) الأصمعيات ١/٣٥ . ويروى البيت الثانى فى لسان العرب مادة (جبر) « به من نجاء الصيف » — الشل : أن يصيب الثوب سواد ولا يذهب بغسله . الصوح : حائط الوادى وأسفل الجبل أو وجهه القائم كأنه حائط . الجبار : السيل . السملة : الماء القليل .

(٣) الأغانى ٢١/١٤١ — الغماليل : الروابى . والغيل : الشجر الكثير الملتف .

عن حيوان الصحراء ووحشها وطيرها وحشراتها وما يُخيل للسارى فيها من أشباح .

وحين نستعرض مجموعة شعر الصعاليك التى بين أيدينا نجد أنهم تعرضوا بالذكر لسبعة وعشرين نوعاً من هذه الفصائل السابقة : الذئب ، والضبع ، والسِّمع ، والنمر ، والأسد ، والثعلب ، والضب ، ثم حمار الوحش ، والنعام ، والوعول ، والظباء ، والأرانب ، ثم الحيات ، والعظايا ، ثم النسر ، والصقر ، والعقاب ، والغراب ، والبوم ، والسمانى ، والقمرىّ ، والقطاة ، والهدهد ، ثم النحل ، والجراد ، ثم الجن ، والغيلان .

ومن الطبيعى ألا يتحدث الشعراء الصعاليك عن هذه الأنواع جميعاً بدرجة واحدة ، فإن بعضها أقرب إلى طبيعة حياتهم ، وأدل على تصويرها ، وأصلح للانتفاع به فى فنهم من بعضها. ومن هُنا تفاوت اهتمام الشعراء الصعاليك بهذه الأنواع تفاوتاً كبيراً .

وقد رأينا كيف استغل العداءون منهم تلك المجموعة من الحيوان السريع العدو فى حديثهم عن سرعة عدوهم استغلالا رائعاً ممتازاً ، ورأينا تأبط شرا يذكر فى بعض شعره أن وحش الصحراء قد ألفته ولم تعد تخشاه أو تنفر منه ، كما رأينا الشنفرى ، وهو يصف الوادى البعيد الذى اعتسفه ، يذكر أنه موطن للجن والآساد .

ولكن الأمر لا يقف بالشعراء الصعاليك عند هذا الحد ، بل يتجاوز ذلك أحياناً إلى تعرضهم لبعض هذه الأنواع بالوصف الدقيق المفصل ، الأمر الذى لا يتهيأ إلا لمن اتصل بها اتصالا قريباً عرف منه طبائعها وعاداتها .

فى شعر عروة وصف للأسد ، فهو عريض الساعدين عريض الصدر ، رابضٌ فوق أجمة يتساقط قصَبها فوق ظهره ، ولكن إذا بدت له فريسة فما هى إلا وثبة واحدة حتى يقتنصها ، أما زئيره فيشبه صوت الرعد :

تَبغانىَ الأعداءُ إما إلى دم وإما عُرَاض الساعدين مصَدَّرَا
يَظلّ الأباء ساقطاً فوق متنه له العَدْوةالأولىإذا القِرْنُأصْحرا

كأَن خَوَاتَ الرعد رِزُّ زئيره   من اللاء يسكنَّ الغرِيفَ بَعشَّرا[1]

وتستأثر الضباع بجزء كبير من شعر الأعلم ، وهو يصفها وصفاً دقيقاً ، ويصف جراءها ، وفعلهن بفريستهن ، فالضبع غليظة لها ثمانى جَوَاعر ، خلف أظلافها شعرات مجتمعة ، وفويق هذه الشعرات دوائر مثل الخلاخيل يخالف لونها سائر لون الأرجل :

عَشَنْزَرَةٌ جواعرها ثمان   فُوَيقَ زَمَاعها خَدَمٌ حُجولُ[2]

ويصف جراءها ، وانتفاخ بطونهن ، وسواد جلودهن كأنما ارتدين ثياب رهبان ، وقصر آذانهن العريضة التى تشبه المغارف ، وما يفعلنه بالفريسة المسكينة التى تجر أمهن إليهن لحمها ، وكيف ينزعن جلدها كما ينزع القيون بطائن الجفون البالية :

وتَجر مُجْــرِيةٌ لها   لحمى إلى أجر حَوَاشبْ
سُودٍ سَحاليل كأَن   جلودهن ثياب راهبْ
آذانهن إذا احتَضَرْ   نَ فريسةً مثل المذانب
يَنزعنَ جلدَ المرء نَزْ   عَ القين أخلاق المذاهب[3]

وهى صورة يخشاها تأبط شرًّا أيضاً ، ويصورها فى بعض قصائده ، فالضبع تنبش الأرض عن الجيف المدفونة ، ثم تنشب فيها أنيابها وبراثنها ، ثم تدعو رفيقاتها وبناتها ، فيسارعن إليها ليشاركنها نهشها :

---

(١) ديوانه / ٥٥ ، ٥٦ – المراض : المريض . والمصدر : العريض الصدر . والأباء : القصب . وأصحر : برز إليه . وخوات الرعد : صوته . والرز : الصوت تسمعه من بعيد ولا ترى صاحبه . والغريف : الشجر الملتف . وعثر : أرض قبل تبالة تسكنها الأسود ، وتبالة بلدة من أرض تهامة جنوبى الطائف .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١ / ٦٤ – العشنزرة : الغليظة المسنة . والزماع : جمع زمعة ، وهى شعرات خلف ظلف الشاة فضرب به مثلا . والخدم جمع خدمة وهى لون يخالف سائر لون رجلها مثل الخلخال .

(٣) المصدر السابق ١ / ٥٧ ، ٥٨ – مجرية : أى ضبع ذات جراء . والحواشب : المنتفخات الجنوب . والسحاليل : العظام البطون . والمذانب : المغارف التى يغرف بها . والمذاهب : بطائن مذهبة تغشى بها أجفان السيوف .

فزُحْزحتُ عنهم أو تجئنى منيّتى ... بغبراءَ أو عرفاءَ تفرى الدفائنا
كأنّى أراها الموتَ لادرَّ درها ... إذا أمكنتْ أنيابهـا والبراثنا
وقالتْ لأخرى خلفها وبناتها : ... حُتوفٌ تنَقّى مُخَّ من كان واهنا
أخاليجُ وُرّادٌ على ذى محافل ... إذا نزعوا مَدوا الدلا والشواطنا(١)

أما الشنفرى فلا يخشى على جسده الضبع ، بل يحرص على أن يهيئ لها منه وليمة شهية ، وهو لهذا يبشرها بمقتله ، ويطلب إلى قاتليه ألا يدفنوه :

لا تَقْبرونى إن قبرى مُحَرَّمٌ ... عليكم ولكنْ أبشرى أم عامرِ(٢)

ويرسم أبو خراش فى قصيدة له صورةً طبيعية صادقة لحمار الوحش وأتنه التى استبان حملها ، وما يدور بينه وبينها ، فهى تتأبى عليه ، وهو يصاولها ويتبعها . ولكن هذا ليس كل شىء فى حياة هذا الحيوان ، وإنما هناك جانب نفسى آخر فى حياته ، هو ذلك الذعر الذى يملأ نفسه هَمًّا من خشية الصيادين ، ويعبر الشاعر عن هذا الذعر بمنظر الحمار وقد اعتلى مرتفعاً من الأرض يشرف منه على الآفاق حوله ، وقد امتلأت نفسه خوفاً وهمًّا ، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب بعد يوم طويل شديد الحر تذكر إناثه ، فأخذ يطاردها مرة أخرى وهى تعدو أمامه فتثير غباراً ممتدًّا كأنه خيوط لم تُبرم :

أَرَى الدهرَ لايُبْقِى على حدَثانه ... أَقبَّ تباريه جَدائدُ حُولُ
أَبَنّ عِقَاقاً ثم يَرْمَحْن ظَلْمَهُ ... إباءً وفيه صَوْلة وذميلُ
يظل على البرْز اليَفَاع كأنه ... من الغار والخوف المحِمِّ وبيل
وظل لها يوم كأن أوَارَه ... ذكاالنار من فَيْح الفُروغ طويل
فلما رأين الشمس صارت كأنها ... فويق البَضيع فى الشعاع خميل

---

(١) الأغانى ١٨/٢١٣ — الضمير فى « عنهم » يعود على أعدائه الذين يطاردونه وهو يفر منهم . والأخاليج : جمع إخليج وهو السريع ، أو من خلج بمعنى جذب وانتزع . الدلا : هى الدلاء جمع دلو . والشواطن : الحبال .

(٢) ديوانه فى الطرائف الأدبية /٣٦ . والشعر والشعراء /١٩ — وأم عامر : الضبع .

فهيَّجها وانشامَ نَقعاً كأَنه إذا لفها ثم استمر سَحيلُ(١)

ويرسم أيضاً صورة طبيعية صادقة للون من ألوان الصراع الذى يدور فى تلك الصحراء المقفرة بين كائناتها الحية ، والصراع هنا بين صقر وأرنب ، فالصقر فوق مرتفع مشرف على الآفاق ، رأى على بعد أرنباً بين شقوق الأرض ، فهوى إليها ، ولكنها تسرع لتنجو منه ، فيزيد هو من سرعته حتى انقض عليها فانتظم قلبها :

ولا أمعرُ الساقين ظل كأَنه على مُحْزَئِلَّات الإكام نصِيلُ
رأى أَرنباً من دونها غولُ أَشرُج بعيدٌ عليهن السرابُ يزول
فَضم جناحيه ومن دون ما يرى بلادٌ وُحوشٌ أَمرُعٌ ومُحُول
تُوَائلُ منه بالضَّراء كأَنها سَفاةٌ لها فوق التراب زَليلُ
يقرِّبه النهض النجيح لما يرى ومنه بدُوٌّ تارة ومثول
فأَهوى لها فى الجو فاختل قلبها صَيودٌ لحبات القلوب قتول(٢)

ولعل أطرف ما فى شعر الصعاليك من هذا الباب أحاديث الجن والغيلان .

---

(١) ديوان الهذليين ٢ / ١١٧ — ١١٩ . أقب : حمار ضامر البطن . جدائد : جمع جدود وهى التى لا لبن لها . وحول : جمل حائل وهى التى لم تحمل من عامها . والعقاق : الحمل . والظلم : طلب السفاد فى غير موضعه . والذميل : سير لين مع سرعة . والبرز : ما يبرز للشمس . واليفاع : المرتفع من الأرض . وقوله الخوف المحم يريد به الخوف الذى يأخذه معه هم وحديث نفس . والوبيل : العصا الغليظة الشديدة ، يريد أنه من الخوف ضمر حتى صار كالعصا . ذكا النار : اشتعالها . من فيح الفروغ : أى يفور ويهتاج من مجراه الذى يجرى منه كمثل فرغ الدلو . البضيع : الجزيرة فى البحر . والخميل : القطيفة لها أهداب ، يقول : صارت الشمس حين دنت للغروب فويق جزر البحر كأنها قطيفة لها أهداب يشبه بها أشعتها . وقوله : انشام نقعا أى دخل فيه ، والنقع : الغبار . والسحيل : خيط لم يبرم يشبه به الغبار ، أى أن الحمار دخل فى غبار كأنه هذا النسيج قبل أن ينسج .

(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٢١ — ١٢٣ . أمعر الساقين : لا ريش عليهما ، يريد به صقرا . المحزئل : المرتفع . النصيل : حجر طويل أملس يجعل فى البئر . الأشرج : شقوق تكون فى الأرض بعيدة طوال . غول : أى ذات بعد . يزول : أى يتحرك . بلاد وحوش : أى بلاد واسعة تسكنها الوحوش . توائل : أى تتوارى لتنجو منه . الضراء : ما واراك من الشجر . السفاة : الشوكة . وقوله لها فوق التراب زليل : أى من خفتها تزل فوق الأرض . اختل قلبها : أى انتظمه .

وأكثر ما يرد ذلك فى شعر تأبط شرًّا ، وهى صورة — وإن تكن محاطة بإطار أسطورىّ — تصور ما كان يخيله الوهم لذلك الصعلوك المغامر المتشرد البعيد الآفاق فى الليالى المظلمة بين أرجاء الصحراء الموحشة ، حيث تتجسم الرؤى أشباحاً مخيفة ، وتختلط الأصوات فى لحن غامض رهيب . ومع ذلك فقد يكون ما يقصده تأبط شرًّا من الغيلان تلك الفصيلة من الحيوان المعروفة باسم « الغورلا »[1] ، ولكن هذا لا ينفى أن صورتها عنده محاطة بإطار أسطورى . وهو يصور لقاءه لها ، بعد أن يمهد لذلك بالحديث عن الليل ، ثم يصفها ، ويسجل ما دار بينه وبينها ، وتنتهى القصيدة بينهما دائماً بقتلها :

وأدهمَ قد جُبتُ جلبابه ... كما اجتابت الكاعبُ الخيْعَلا
إلى أن حدا الصبحُ أثناءه ... ومزَّقَ جلبـــابه الأَلْيَلا
على شيمِ نار تنوَّرتها ... فبت لها مدبراً مقبلا
فأصبحت والغولُ لى جارةٌ ... فيا جارتَا أنت ما أهولا
وطالبتهـــا بُضْعها فالتوت ... بوجه تَغَوَّل فاستغوَلا
فقلتُ لها يا انظرى كى تَرىْ ... فَولتْ فكنتُ لها أَغْوَلا
فطار بقَحْفِ ابنة الجن ذو ... سَفاسقَ قد أخلقَ المحملا
إذا كَلَّ أمهيْته بالصفا ... فحدَّ ولم أره صَيْقلا
عَظايةُ قفر لها حُلتا ... ن من وَرَق الطلح لم تُغزَلا
فَمنْ سالَ أين ثَوَتْ جارتى ... فإن لها باللوَى منزلا[2]

وهناك مقطوعان أخريان تصوران قصتين أخريين مع الغول والجن[3] ،

---

(١) فى القاموس المحيط : من معانى الغول السعلاة ، والحية ، وساحرة الجن ، « أو داية رأتها العرب وعرفتها ، وقتلها تأبط شرا » (مادة غول) .

(٢) الشعر والشعراء ١/١٧٦ ، ١٧٧ . والأغانى ١٨/٢١٠ — الخيعل : ثوب تلبسه المرأة كالقميص ، أو قميص لا كين له . العظاية : دويبة كسام أبرص .

(٣) انظر الأغانى ١٨/٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ والبغدادى : خزانة الأدب ٣/١٠٨ . والبكرى : معجم ما استعجم ١/٢٥٧ . ولسان العرب : مادة (حد) .

ولكن الشك يحيط بنسبتهما إلى تأبط شرا ، إذ أنهما كما تنسبان له تنسبان لغيره من الشعراء ، ولكن هذا يدل دلالة واضحة على شهرة تأبط شرًّا بحديثه عن الجن والغيلان ، حتى ليختلط الأمر على الرواة فيما يُرْوَى من هذا الحديث أهو له أم لغيره من الشعراء .

٢ ـ الشعر خارج دائرة الصعلكة

آثار القبلية فى شعرهم :

الباحث فى شعر الصعاليك يجد مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت فى أغراض قبلية ، وتتسم بسمات الشعر الجاهلى القبلى ، وهى مجموعة — وإن تكن قليلة متضائلة — تبدو للنظرة الأولى غريبة على شعر الصعاليك ، لأننا نعرف أن هؤلاء الصعاليك قد تحللوا من التزاماتهم القبلية ، فتحللت شخصياتهم الفنية من التأثر بها ، فكان طبيعيًّا أن يخلو شعرهم من تلك الأغراض القبلية التى نراها فى سائر الشعر الجاهلى .

ولكن المسألة لا تصل إلى درجة المشكلة ، فمن الطبيعى أن حياة هؤلاء الصعاليك قد مرت بدورين اجتماعيين : الدور الأول وهو فترة ما قبل التصعلك ، تلك الفترة التى كان الصعلوك فيها عضواً عاملا فى المجتمع القبلى قبل أن يبلغ سوء توافقه الاجتماعى الذروة التى يبدأ من عندها الدور الثانى فى حياته الاجتماعية ، وهو فترة تصعلكه التى قد تستمر حتى مقتله أو موته . وليس يعنينا أن يقلع الصعلوك عن تصعلكه ، فهو فى هذه الحالة لا يبدأ دوراً ثالثاً من حياته الاجتماعية ، وإنما يعود عودة اجتماعية لا عودة زمنية إلى الدور الأول . ومن الطبيعى أيضاً أن يكون بعض هؤلاء الصعاليك قد اكتملت مواهبهم الفنية فى الدور الأول فشاركوا شعراء القبيلة فى حياتهم الفنية ، وأيضاً قد يشاركونهم فيها إذا ما انتهى الدور الثانى بالعودة إلى الحياة القبلية . ومعنى هذا أن هذه المجموعة القبلية من شعر الصعاليك نتاجُ لفترتين تمثلان فى الحقيقة دوراً اجتماعيًّا واحداً : فترة ما قبل التصعلك وفترة ما بعد التصعلك .

ولعروة بن الورد العبسى مجموعة قليلة من القصائد والمقطوعات فى موضوعات قبلية[١]، كما نعثر برواسب ضئيلة جداً من الحياة القبلية عند صخر الغى الهذلى ، والسليك بن السلكة السعدى . أما صخر الغى فلا يتجاوز ما وصل إلينا من شعره القبلى أبياتاً قليلة فى مقطوعتين يناقض فيهما شاعراً فيهدده بكثرة قومه ، وبأنهم ينصرونه ، ويأبون له الضيم :

وخَفِّضْ عليكَ القولَ واعلمْ بأنّنى ... من الأَنَس الطاحى الحُلول العرمْرَمِ
أبتْ لىَ عمرو أن أضَامَ ومَازِنٌ ... وقِرْدٌ ولحْيانٌ وسَهمٌ فَسلَّم[٢]

ويعلنه بأن قومه يلبون دعوته إذا دعاهم ، فيسرعون لنصرته كما تسيل الشعاب بالماء :

أَبا المثلّم إنى غــبر مُهْتضَم ... إذا دعوتُ تميما سالت المُسُلُ[٣]

وأما السليك فكل ما وصل إلينا من شعره القبلى مقطوعة واحدة فى ثلاثة أبيات يحذر فيها قومه من مغيرين قابلهم فى بعض تشرده مسرعين إليهم ، ويذكر أن قومه يكذبونه ، ويؤكد لهم صدقه :

يُكذِّبنِى العمْران عمرو بن جندب ... وعمرو بن سعد والمكذِّب أكْذَبُ
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتها ... كراديسَ يَهْديها إلى الحى موكب
كراديس فيها الحَوْفزَانُ وقومه ... فوارس هَمام متى يَدعُ يركبوا[٤]

ومن مجموعة شعر حاجز القليلة التى وصلت إلينا خمس قطع من هذا الشعر القبلى قالها فى ظروف قبلية معروفة يذكرها الرواة . وحاجز فى هذه القطع مندمج فى المجتمع القبلى اندماجاً واضحاً ، يعبر بلسان قومه كما يعبر أى شاعر جاهلى قبلى ، يفخر بهم فيذكر أنهم كرماء ، ويعتز بأبيه وعمه اللذين أسديا

---

(١) انظر ديوانه : القطعتين رقم ١٠ ورقم ٢٤ .
(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٢١ — الأنس : الحى . والطاحى : المتسع المنتشر . والأسماء فى البيت الثانى أسماء قبائل .
(٣) المصدر السابق / ٢٤ — وتميم هنا من هذيل . والمسل : جمع مسل وهو مسيل الماء .
(٤) الأغانى ١٨/ ١٣٦ . والشعر والشعراء / ٢١٦ .

للقبيلة يدين بيضاوين فى يومين من أيامها . والطريف حقاً أن حاجزاً يبدأ إحدى هذه القصائد كما يبدأ الشعراء القبليون قصائدهم بالنسيب[١] ، فيحيي صاحبته ويدعولها بالسلامة ، ثم يصفها ويتحدث عن صرمها له وبعدها عنه ، ثم ينتقل — كما يفعل الشعراء القبليون أيضاً — إلى الحديث عن ناقته ورحلته عليها ، ثم ينتقل انتقالا مفاجئاً — كعادة الشعراء القبليين أيضاً — إلى الحديث عن قومه .

وكما يفخر حاجز بقومه يذكر أيامهم التى انتصروا فيها :

إنْ تذكروا يوم القَرِىّ فإنه　　　بَواءٌ بأَيام كثيرٍ عَديدُها
فنحن أبحنا بالشخيصة واهنًا　　　جهارًا فجئنا بالنساء نقودها
ويوم كِرَاء قد تَدارك رَكضنا　　　بنى مالك والخيلُ صُعرٌ خدودها
ويوم الأَراكات اللواتى تأَخرت　　　سَرَاة بنى لهبان يدعو شريدها
ونحن صبَحنا الحى يوم تَنُومة　　　بملمومة يُهْوِى الشجاعَ وئيدها
ويوم شَرُوم قد تَرَكنا عصابة　　　لدى جانب الطرفاء حمراً جلودها
فما رَغِمتْ حلفا لأَمر يصيبها　　　من الذل إلا نحن رغما نزيدها[٢]

ويسجل شماتته ، أو — بعبارة أدق — شماتة قبيلته بأعدائهم ، ويعيرهم بما فعلوه بهم من قتل رجالهم وسبى نسائهم :

ياضَمرَ هل نلناكمُ بدمائنا　　　أَم هل حَذَونا نعلكم بمثال
تبكى لقتلى من فُقَيم قُتِّلوا　　　فاليوم تبكى صادقاً لهلال
ولقد شفانى أنْ رأَيت نساءكم　　　يبكين مُرَدفة على الأَكفال
ياضمرَ إن الحرب أضحت بيننا　　　لَقِحتْ على الدكَّاء بعد حِيال[٣]

ويتوعد أعداء قبيلته ، ويهددهم بأبطال شجعان من قومه مسلحين

---

(١) (ميميته) الأغانى ١٢/ ٥٠ (بولاق) .
(٢) المصدر السابق / ٥١ . البواء : الكفء . والململومة : الكتيبة .
(٣) المصدر السابق / ٥٢ . الحيال : العقم .

بالسيوف والرماح قد عرفتهم القبائل من قبل :

سَتمنعنا منكم ومن سوء صنعكم صفائحُ بيضٌ أخلصتها الصياقلُ
وأسمرُ خَطيٌّ إذا هُز عاسلٌ بأيدى كماة جرَّبتها القبائل[١]

وأما قيس بن الحدادية فى مجموعة شعره القليلة أيضاً التى وصلت إلينا ، نعثر بثلاث قطع من الشعر القبلى ، إذا أخرجنا تلك القصيدة البائية المشكوك فيها ، والتى أشرنا إليها فى الفصل السابق[٢] .

وشأن قيس فى هذا الشعر شأن حاجز فى شعره القبلى شأن سائر الشعراء القبليين ، يفخر بانتصار قومه على أعدائهم ، ويسجل أسماء من قتلوا منهم ، ويذكر عودتهم بالإبل التى غنموها ، والنساء اللائى سبوهن[٣] ، ويعتز بقومه حين تغزوهم قبيلة أخرى فيثبتون لهم ، ويردونهم على أعقابهم خاسرين ، بعد أن أعمل فيهم فرسانهم الرماح والسيوف التى تنتزع سواعدهم[٤] ، ويهجو أعداء قومه ويرد عليهم دعواهم بالنصر بأنهم يفخرون بيوم ليس لهم ، ويعيرهم بفرارهم أمامهم ، والخيل تركض خلفهم ، وقد تركوا وراءهم أسرى[٥] . وقد يحسن من الطريف أن نلاحظ أن اثنتين من هذه القطع الثلاث نقيضتان بين قيس وبين شاعرين من أعداء قومه[٦] يرد بهما عليهما ، وهى صورة أدل على قبلية هذا الشعر ، لأن قيساً حريص على أن يكون رده على هذين الشاعرين من جنس قولهما ، وهما شاعران قبليان .

وعلى كل حال فهذه المجموعة من الشعر القبلى التى تقابلنا فى شعر الصعاليك قليلة ، كما أن عدد شعرائها قليل أيضاً .

---

(١) المصدر نفسه / ٥٠ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٤ (بولاق) . وانظر ص ١٧٤ من هذا البحث .
(٣) انظر قصيدته الخائية فى المصدر السابق / ٣
(٤) انظر مقطوعته الدالية فى المصدر نفسه / ٥ .
(٥) انظر مقطوعته الميمية فى المصدر نفسه / ٤ .
(٦) الخائية والميمية السابقتان .

المجموعة الإسلامية فى شعرهم :

حين ننظر فيما بين أيدينا من شعر الصعاليك نجد مجموعة أخرى قليلة نظمها المخضرمون منهم : أبو الطمحان القينى ، وأبو خراش الهذلى ، وفضالة ابن شريك الأسدى ، بعد أن أشرقت الجزيرة العربية بنور ربها .

وقبل أن نمضى فى استعراض موضوعات هذه المجموعة التى يصح أن نطلق عليها « المجموعة الإسلامية فى شعر الصعاليك » نقف لنسجل ملاحظتين : أولاهما أن مجموعة شعر أبى الطمحان ليس من اليسير تمييز الجاهلى فيها من الإسلامى ، إذ أن كل ما يرويه الرواة حولها من أخبار لا يكفى لتحديد الوقت الذى قيلت فيه ، كما أن هذه المجموعة خالية تماماً من الإشارات التى تحدد زمنها ، ما عدا بيتين يصف فيهما انحناء جسمه وتقارب خطوه[١] ، مما يرجح أنه قالهما فى شيخوخته المتأخرة ، وبيتين آخرين فى مدح يزيد بن عبد الملك يذكر الأصمعى أنه أعطاهما مغنياً ليتغنى بهما فى مجلس يزيد[٢] .

وأما الملاحظة الأخرى فهى أن كل ما وصل إلينا من شعر فضالة بن شريك إسلامى ، تؤكد ذلك أخباره والأسماء الإسلامية التى وردت فيه ، أما شعره الصعلكى فلم يصل إلينا شىء منه ، مع أنهم يذكرون عنه أنه « كان شاعراً فاتكا صعلوكاً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام »[٣] . وهى ظاهرة غريبة وقفت طويلا أمام تعليلها ، وانتهيت إلى فرضين : إما أن فضالة لم يكن قد نضج فنياً فى الجاهلية ، ولم يتم نضجه إلا بعد الإسلام ، وإما أن يكون له شعر داخل دائرة التصعلك ولكن عملت ظروف خاصة على ضياعه ، وأنا أرجح هذا الفرض الأخير ، وأرجح أن أهم هذه الظروف المركز الاجتماعى لابنه فاتك ، فقد « كان سيداً جواداً »[٤] ، وكان كريماً على بنى أمية ، وهو

---

(١) السجستانى : كتاب المعمرين /٦٣ . والبغدادى : خزانة الأدب ٣/٤٢٦ . والأغانى ١١/١٣٠ ، (بولاق) وحماسة البحترى /٣٢٣ .

(٢) العقد الفريد ٦/٣٧ .

(٣) الأغانى ١٠/١٧١ (بولاق) .

(٤) المصدر السابق /١٧١ .

الوافد على عبد الملك بن مروان قبل أن ينهض إلى حرب ابن الزبير فضمن له على أهل العراق طاعتهم وتسليم بلادهم إليه ، وأن يُسلموا مصعباً إذا لقيه ويتفرقوا عنه ، وله يقول الأقيشر فى هذه الوفادة :

وَفد الوفود فكنتَ أفضل وافد يافاتك بن فضالة بن شريك[١]

وقد يؤيد هذا أن كل أخبار تصعلك فضالة قد ضاعت أيضاً ، والسبب هنا هو السبب هناك ، ولو قد وصل إلينا شيء منها لوقفنا من هذا الفرض موقف المتشكك .

ومهما يكن من أمر فإن موضوعات « المجموعة الإسلامية فى شعر الصعاليك » قد خلت من تلك الموضوعات التى عرفناها فى شعرهم داخل دائرة التصعلك ، وهذا طبيعى بعد أن غير الإسلام من أوضاع الحياة العربية الاجتماعية والاقتصادية ولم يعد للتصعلك مجال فيها . وتوشك موضوعات هذه المجموعة الإسلامية أن تنحصر فى تلك الموضوعات العامة التى يعرفها الشعر العربى : المدح والهجاء والرثاء .

أما المدح والهجاء فيوشك فضَالة أن يستأثر بهما . ويبدو أن فضاله أدرك أن هذه وسيلة من وسائل العيش تغنيه عن التصعلك ، فاندمج فى الوسط السياسى الأموى ، وشارك شعراءه ، وأصبح شاعراً أمويًّا يمدح الأمويين ويهجو أعداءهم . وهو يؤثر بالمدح خاصة يزيد بن معاوية[٢] ، وقد تبدو هذه الصلة بين يزيد وفضالة طبيعية ، فقد كان يزيد بما فيه من استهتار وجاهلية أقرب إلى نفس فضالة الصعلوك ، حتى ليجيره من عمرو بن سعيد بن العاص أمير المدينة يومئذ بعد أن هرب منها لهجائه عاصم بن عمر بن الخطاب ، واستعداء عاصم الأمير عليه[٣] ، وهو — وإن يكن قد آثر يزيد بمدحه — لم ينس أن يمدح بنى أميه عامة[٤] .

---

(١) الأغانى ١١/٢٧١ (دار الكتب) وانظر أيضاً ١٠/١٧١ (بولاق) .
(٢) الأغانى ١٠/١٧٠ ، ١٧٢ (بولاق) .
(٣) المصدر السابق /١٧١ ، ١٧٢ .
(٤) المصدر نفسه /١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

أما الهجاء فقد صبه مرةً على عاصم بن عمر بن الخطاب ، كما رأينا ، لأنه «نزل به فلم يَقره شيئاً ، ولم يبعث إليه ولا إلى أصحابه بشيء وقد عرَّفوه مكانهم» ، وهو يعلن له فى بعض هجائه أنه لولا فضل أبيه لقلده خزياً وعاراً:

فلولا يَدُ الفاروق قَلَّدتُ عاصما مُطَوَّقة يَخْزَى بها فى المواسم[١]

وصبه مرة ثانية على رجل من سُلَيم أودع عنده ناقة وخرج فى سفر فلما عاد وطلبها منه ذكر السلمى أنها سرقت[٢].

وصبه مرة ثالثة على عبد الله بن مُطيع والى عبد الله بن الزبير على الكوفة بعد أن طرده عنها المختار الثقفى[٣] ، وعلى عبد الله بن الزبير نفسه فى قصيدة ينسبها بعض الرواة إليه ، وينسبها بعضهم إلى ابنه عبد الله[٤] .

وصبه مرة رابعة على رجل من الكوفة تزوج امرأة فسأل فى صداقها[٥] ، وهى مسألة مشينة وبخاصة فى نفس صعلوك لم يرض أن يتخذ من السؤال وسيلة للعيش فى يوم من الأيام .

وقد روى بيتان لأبى الطمحان يمدح بهما يزيد بن عبد الملك وكان قد انتجعه :

يكاد الغمام الغُرُّ يُرعِدُ أنْ رأى مُحَيا ابن مروان وينهلُّ بارقُه
يظل فتيتُ المسك فى رونق الضحى تَسيلُ به أصداغه ومَفارقه[٦]

أما الرثاء فقد اختص به أبو خراش ، شأنه فى ذلك شأن سائر الشعراء الهذليين الذين عرفوا بمقدرتهم الرثائية الفائقة . والطريف أن أبا خراش فى الإسلام يرثى أصدقاءه فى الجاهلية ، وبين أيدينا من شعره الإسلامى أربع قطع يرثى بها صديقين من أصدقاء الجاهلية : أخاه أو ابن عمه زهير بن

(١) المصدر نفسه / ١٧١ .
(٢) المصدر نفسه / ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) المصدر نفسه / ١٧٢ .
(٤) المصدر نفسه / ١٧١ ، ١٧٣ .
(٥) المصدر السابق / ١٧٢ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٦ / ٣٧ ، ٣٨ .

العَجْوة[١] الذى يخصه بثلاث منها: قصيدتين ومقطوعة[٢] ، ودُبيّة سادن العزى الذى يرثيه بمقطوعة من أربعة أبيات[٣] . وتتجلى لوعته وفجيعته بالذات على زهير الذى يبدو من حديثه عنه أنه كان أيضاً رفيقاً له فى مغامراته[٤] ، أما دبية فلا يتحدث عنه حديث الملتاع المفجوع بقدر ما يتحدث عنه حديث الذاكر لأيامه الآسف على انقضائها ، ولعله وفاء بدين كان لدبية فى عنق أبى خراش ، أو — بعبارة أدق — فى قدمى أبى خداش منذ أيام تصعلكه ، فقد حذاه دبية مرة نعلين فرح بهما فرحاً شديداً ، ومدحه بمقطوعة يسجل فيها هذه الهدية وقيمتها له[٥] . والأمر الذى لا شك فيه أن أبا خراش كان جريئاً حين وقف فى الإسلام يرثى دبية سادن العزى الذى قتله خالد بن الوليد بأمر من النبى صلى الله عليه وسلم[٦] . ومع ذلك فمن المحتمل أن أبا خراش حين قُتل دبية لم يكن قد أسلم بعد ، ولكن يبدو أنه احتمال ضعيف نظراً لطبيعة المرثية التى بين أيدينا ، فإن أبا خراش فيها لم يتعرض لقاتل دبية على الإطلاق ، ولو كان أبو خراش قالها قبل إسلامه لتعرض لخالد بن الوليد كما فعل مع قاتل زهير . ومع ذلك فقد يكون الرواة أسقطوا منها تعرضه لخالد ، وحتى مع هذا الاحتمال بأنه قالها قبل إسلامه فلا شك فى أنه كان جريئاً حين وقف يرثى دبية فى ذلك الوقت الذى أخذ فيه المسلمون يسيطرون على الموقف فى جزيرة العرب ، إذ أن دبية لم يقتل إلا بعد فتح مكة[٧] .

ويرثى أبو خراش صديقيه بمعان مألوفة فى الشعر الجاهلى عامة : الكرم والشجاعة وعجز الإنسان أمام الموت الذى لا ينجو منه حى حتى الحيوان

---

(١) يقال إنه أخوه ، ويقال إنه ابن عمه (انظر ابن الأثير : أسد الغابة ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩).
(٢) ديوان الهذليين ٢ / ١٤٨ — ١٥٠ ، ١٦١ — ١٦٤ ، ١٥٧ .
(٣) المصدر السابق / ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٤) انظر الأبيات السبعة فى المصدر السابق / ١٥٠ .
(٥) انظر مقطوعة اللامية فى المصدر السابق / ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر كتاب الأصنام / ٢٢ ، ٢٣ .
(٦) انظر كتاب الأصنام / ٢٤ — ٢٦ .
(٧) المصدر السابق / ٢٤ ، ٢٥ .

الشارد فى صحرائه ، ولكنا نقف أمام ظاهرتين طريفتين تستحقان التسجيل :

أولاهما : رواسب الصعلكة فى شعر أبى خراش الإسلامى .

والأخرى : تأثير الإسلام فيه .

فما زالت صورة الفقراء المهتلكين الجياع ذوى الثياب البالية ، والضباع التى تنتظر أجساد القتلى فى اشتهاء ظامئ ، والثأر الذى يملأ النفوس حقداً وغليلا ، وذكريات الماضى الذى لا ينساه أبو خراش ، تتردد فى رثائه لزهير ، وبخاصة فى لاميته[1] .

ومع هذه الصورة نعثر على صورة أخرى لتلك الحياة التى تغيرت ظروفها نتيجة لظهور الإسلام ، فقد أحاطت برقاب هؤلاء الصعاليك سلاسل الدين الجديد ، فلم يعودوا قادرين على أن يمضوا فى حياتهم كما كانوا فى الجاهلية ، وأصبح مقياس الأمور فى هذه الحياة الإسلامية العدل والحق ، أما الظلم والباطل فقد مضى عهدهما الطائش الجاهل ، وأصبح فتيان الصعاليك وقد تفرقت جماعاتهم كأنما فرق بينهم الموت :

فليس كعهد الدار يا أُم مالك ... ولكنْ أحاطتْ بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئاً فاستراح العواذلُ

فأصبح إخوانُ الصفاء كأنما ... أهالَ عليهم جانبَ الترب هائل[2]

وأشد ما يملأ نفس أبى خراش غيظاً وغليلا أنه أصبح عاجزاً عن أن يثأر لصاحبه من قاتله ، وهو من قريش ، أولئك الذين صارت الإمارة والملك فيهم ، ولولا ذلك ما كان ليخشاهم ، ولكن ماذا يفعل سوى أن يظل طول عمره مغيظاً محنقاً عليهم حتى يُقْتلوا بصاحبه :

فما كنتُ أخشى أن تنال دماءنا ... قريشٌ ولمَّا يُقْتلوا بقتيل

وأبرحُ مـــا أمَّرْتمُ وملكتمُ ... يَدَ الدهر ما لم تُقْتلوا بغليل[3]

---

(١) ديوان الهذليين ٢/١٤٨ – ١٥٠ ، ١٥٧ .

(٢) المصدر السابق /١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه /١٥٧ .

وهكذا تمتزج الصورتان في صورة رائعة طريفة لوناها التصعلك والإسلام .

والطريف أيضاً أن أبا خراش بعد أن أسلم وحسن إسلامه[١] ، وبعد أن عاش في الإسلام عمراً طويلا امتد به حتى خلافة عمر بن الخطاب[٢] ، حين يقف على البرزخ الفاصل بين الحياة والموت ، لا يأسف على شيء كما يأسف على ساقه التي نهشتها حية ، والتي طالما أعانته في حياته وكان لها عليه فضل أي فضل :

لَعمرُكَ والمنايا غالبـاتٌ على الإنسان تَطلعُ كلَّ نجْدِ
لقد أهلكتِ حَيةَ بطن أنف على الأَصحاب ساقا ذات فَقْدِ[٣]
لقد أهلكتِ حيةَ بطن أنف على الأَصحاب ساقاً ذات فضْل
فما تَرَكتْ عدُوًّا بين بصرى إلى صنعاء يطلبه بذَحْل[٤]

وهذه أيضاً من رواسب تلك الحياة المتصعلكة التي أخلص لها أبو خراش في جاهليته إخلاصاً عميقاً ظلت آثاره تتسرب من حين إلى حين في شعره الإسلامي .

ولأبي خراش بعد ذلك قصيدة في سبعة أبيات يصور فيها حزنه على هجرة ابنه خراش الذي كان قد حمد الله في بعض أيام تصعلكه البعيدة على أن أنجاه له يوم قتل عروة أخوه[٥]، وكان خراش قد هاجر في خلافة عمر وغزا مع المسلمين ، وكان أبوه بطبيعة الحال في ذلك الوقت شيخاً كبيراً ، فهو يتحدث إلى ابنه في نهاية الأبيات حديثاً تبدو فيه روح الإسلام واضحة ، فليس البر أن يهاجر خراش لينال أجر الشهادة مع المجاهدين مخلفاً أباه وراءه شيخاً كبيراً ضعيفاً في أشد الحاجة إليه ، وإنما البر أن يرعى أباه الذي بلغ عنده الكبر :

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٥/١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق /١٧٩ .
(٣) ديوان الهذليين ٢/١٧١ . والأغاني ٢١/١٩ .
(٤) الأغاني ٢١/٧٠ .
(٥) ديوان الهذليين ٢/١٥٧ — ١٥٩ .

ألاَ فَاعلمْ خراشُ بأَن خيرَ الـ مهاجر بَعدَ هجرته زهيدُ
فإنك وابتغاءَ الخير بَعدى كمخضُوب اللِّبان ولا يصيدُ[١]

وكأنما نستشف من هذين البيتين الآيتين الكريمتين « وقضى رَبكَ ألاَّ تَعبدُوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يَبلغن عندكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تَقلْ لهما أف ولا تنهرْهُما وقُلْ لهما قَولاً كريماً . واخفضْ لهما جَناحَ الذل منَ الرحمة وَقلْ رَب ارْحمهما كما رَبياني صَغيرا »[٢] .

وبحق أمر عمر رضى الله عنه بعد أن استمع إلى هذه الأبيات بأن يعود خراش إلى أبيه ، وألا يغزو من كان له أب شيخ إلا بعد أن يأذن له[٣] .

---

(١) المصدر السابق /١٧١ . والأغانى ٢١/٦٩ .
(٢) سورة الإسراء /٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الأغانى ٢١/٦٩ .